

أخبرني
الطبخة
المتوسطة
في وداع الأربعينيات
عمر طاهر



أخوية الطبقة المتوسطة: في وداع الأربعينيات

عنده ضيوف: حكايات صديقة للبيئة

صناعية مصر: الكتاب الثاني

بعد ما يناموا العيال: مجموعة قصص

مَنْ عَلَّمَ عبد الناصر شُرْب السجائر؟

كُحل وخبَّهان - رواية

كتاب المواصلات: حكايات شخصية لقتل الوقت

صناعية مصر: مشاهد من حياة بعض بناة مصر في العصر الحديث

إذاعة الأغاني: سيرة شخصية للغناء

أثر النبي: قصص قصيرة من وحي السيرة

ألبومات عمر طاهر الساخرة (طبعة جديدة منقحة ومجمعة من «شكلها باظت» و«كابتن مصر»

و«زملكاوي» و«ابن عبد الحميد التريزي» و«رصف مصر») نظرية برما (طبعة جديدة منقحة

ومجمعة من «برما يقابل ربا وسكينة» و«الكلاب لا تأكل الشيكولاتة») جر ناعم

وضع محرّج: أشعار بالعامية المصرية

(طبعة خاصة بمناسبة مرور ٢٠ سنة على صدور الديوان)

أخفِيفُ
الطَبَقَةُ
الْبِتْوَسِيَّةُ
فِي وَدَاعِ الْأَرْبَعِيَّاتِ
عمر طاهر



الكرمة



الكرمة

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

X.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥

© عمر طاهر ٢٠٢٥

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

طاهر، عمر

أخوية الطبقة المتوسطة: سيرة / عمر طاهر - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

١١٢ ص؛ ٢٠ سم

تدمك: 9789779603155

١- سيرة.

أ - العنوان..

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٥٧٧ / ٢٠٢٤

تصميم الغلاف الأمامي والخطوط والرسوم: وليد طاهر

صورة الغلاف الأمامي من تصوير: عمر طاهر

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

[مصلحة السجون](#)

[في دايرة الرحلة](#)

[غرفة العمليات](#)

[الأستاذ طاهر](#)

[أبلة فاتن](#)

[هل تخاف من الموت؟](#)

[الليلة الثانية](#)

[أخوية الطبقة المتوسطة](#)

[قربك نعيم الروح](#)

[اركض في سلام](#)

إهداء

إلى طاهر أحمد عثمان، ثناء عمر محمددين،
عاليا عبد الرؤوف.

والى النسخة التي اجتازت التسع والأربعين سنة الماضية بسلام... تقريبًا.

«الخطوة ف زحام المدن لازم تضيع

مكتوب عليك من قبل حتى ما تشتري لازم تبيع

تبيع ماضيك

تبيع ملامح عايشة فيك

وتشتري كذب الحياة

لكن السؤال

يا ابن الجنوب

يا ابن القلوب الطيبين

هي المدن

بالنسبة ليك تنفع وطن؟».

فرقة الحب والسلام

أشعار: أحمد يسري

لحن: نبيل البقلي

قررت أن أبدأ كتابة القصة من اللحظة التي أخبرتني فيها زوجتي أن موظفًا من مصلحة الكهرباء على باب الشقة يقوم بإجراءات تغيير العداد من نظام الفاتورة إلى نظام كروت الشحن، وهو التغيير الذي بدأت رحلة الهروب منه قبل ثلاث سنوات، جريت خلالها كل الطرق المشروعة أو المخادعة لمراوغة حملات التغيير التي طالت كل عدادات المنطقة، كنت أهرب من التزام جديد قد يسجن الواحد في مسؤوليات لا داعي لها، مراقبة الرصيد، مشاورير الشحن، الاستعداد لمفاجآت نفاذ الرصيد بدون مقدمات.

أهرب من السجون بمختلف أنواعها منذ منتصف التسعينيات.

في هذه الفترة قابلت عم أحمد القصيبي في سيدنا الحسين، رجل صالح يتاجر في الكتب ومن محبي مولانا، صرنا صديقين وبشرني أكثر من مرة بأشياء قد أصادفها في طريقي، كانت البشري مشمولة بالسيناريو الذي سيجري حسب اللقاء، اختبرت صدق ما يقوله ودقته أكثر من مرة، إلى درجة أصابتني بمزيج من الخوف والشعور بالخصوصية، إلى أن بشرني يومًا قائلاً: بص يا عمر إنت هتبقى رئيس تحرير وهدخل السجن. قالها بطريقة رسمت ارتباطًا شرطيًا بين الحديثين، استقر في وجداني أن أول خطوة في الطريق إلى السجن ستكون تعييني رئيسًا لتحرير إصدار ما.

كانت الخطة بسيطة، سوف أتفادى السجن بتفادي فكرة المناصب من بابها، قررت أنني لا أريد شيئًا من العمل في الصحافة سوى أن أبدأ طريقًا أكون بنهايته كاتبًا صاحب قدر ما من التأثير، وخلال خمسة وعشرين عامًا كان المنصب الوحيد الذي تقلدته في المهنة «محرر عام»، قبلت به على سبيل المجاملة والدعم لصديق كان يبدأ طريقه كرئيس تحرير لأول مرة، وبقيت في المنصب ما يقرب من ستة أشهر، انتهت بإغلاق الجريدة.

السؤال: هل أنقذتني تلك المراوغة من فكرة السجن؟
أبداً.

أدخل كل فترة سجنًا جديدًا بأغلال من نوع مختلف.

أخفها دمًا كان سجن تساقط شعري بسرعة عجيبة، كمقدمة لأن أكمل حياتي رجلًا أصلع، دخلت سجن هذا الكراكر الذي سأكمل عمري في

طلته.

سُجنت في السكري، بدأت تنفيذ الحكم بدون مقدمات أو مرافعة، مقيّدًا بأغلال مراقبة طعامي وتحلية القهوة والشاي بسكر ذي نكهة كيميائية، أسلي نفسي بالقياسات اليومية، ومراقبة كفاءة الأدوية، والتحاليل الموسمية، وجهاد النفس في العزائم والخروجات.

في عمر السادسة والثلاثين دخلت سجن الحياة كزوج وأب، وهو استثناء وقعت في غرامه، وأصبح سجنني المفضل السجن الوحيد الذي أهرب إليه ولا أحلم بالهروب منه.

دخلت سجن مرض «tinnitus»، وهو عبارة عن طنين مقيم وزنّة مزمنة في الأذنين نشأت عن تلف عصب ما يؤدي للحبس في هذه الصفارة، مرض نادر لا علاج له إلا التعايش معه وتقبله، وعندما تشتد نوباته لا يجد الطبيب ما يكتبه لي سوى الحبوب المهدئة للمساعدة في مقاومة العكنة.

بعد الزواج بفترة دخلت سجن العيش في الكيلو ٤٠، طريق مصر إسكندرية الصحراوي، على حدود مدينة الشيخ زايد، أنا الشخص الذي قضى ما يقرب من عشرين عامًا في ملاعب وسط البلد التي لا تنام، عليه تقبل الحياة الجديدة الغارقة في الصمت والتي فرضها التفكير في مستقبل أفضل للأسرة.

وسجن الكتابة.

الخطة الوحيدة التي أمتلكها لتغيير الكارير أعرف أنها فاشلة ولا تفتح بيوتًا، «أخوية الطبقة المتوسطة»، محل أبيع فيه البن والبخور والورق وأدوات الكتابة والسجائر والشاي والمخبوزات الطازجة وشرائط الكاسيت القديمة معًا، مشكلتي في هذا البيزنس شعور بالحرج فشلت في معالجته، الحرج من تقاضي مقابل تقديم أيّ من كل ما سبق لشخص ما على الكوكب، أراها هدايا، وهي النوع الوحيد الذي أومن بأثره ويسعدني أنا شخصيًا تلقيه طوال الوقت، لكن أن تأخذ ثمن فنجان قهوة وسيجارة تقدمهما لشخص أو خمسينة شاي وقطعة كيك بلح حديثة التخرج، أو أن تفرش له أوراقًا وأقلًا ملونة ليبروز ما في قلبه، وتشغل له في الخلفية ميادة تؤنسه وهي تشكو له من أولئك الذين مستخسرين فيها المراسيل، فالثمن بخس مهما اجتهدت في تسعير هذه التفاصيل،

وتقاضي مقابل يفسد الأسرار التي تخبئها.
سجون صغيرة متناثرة أتقل بينها وأقاوم حتى لا تفقد الحياة بهجتها،
وحتى لا أبدو كمصدر للإحباط أو الشعور بالأسى في نظر المقربين.
إلى أن أطل اليوم الذي استيقظت فيه على سجن جديد بأغلال جديدة،
وتعليمات سلامة أكثر تعقيدًا، كنت أنتظره، لكنني توقعت أنه ربما بحلول
الخامسة والستين سأرقد في غرفة الرعاية المركزة، في انتظار معجزة
تخرجني منها، خانتني توقعاتي ووجدتني هناك بينما أحتفل بوداع
الأربعينيات.

أعود إلى الحياة كل صباح في موعد ثابت، قبل السادسة بدقائق تستقر روحي الشاردة في غرفة نومي محملة بما استكشفته خلال جولتها الليلية، أسترجع معها ما مررنا به على هامش انتظار فوران القهوة، تجمعنا دردشة سريعة حول ترجمة الرسائل التي تلقيناها خلال الرحلة العجيب، ونبذل أقصى ما في وسعنا لاستكشاف بشرى ما خبأتها الأحداث.

في الطريق إلى وسط المدينة توقفت عند عربة فول اكتشفتها مؤخرًا تختبئ في إحدى حارات منطقة التوفيقية، قادتني إليها الصدفة، وأغرنتني طاولة العيش البلدي الطازج بتجربتها، فصارت فقرة ثابتة كل يوم.

جلست على أحد مقاهي السيدة زينب في انتظار موعد على هامش العمل في الجزء الجديد من كتاب «صناعية مصر»، كان براد الشاي مضبوطًا، وكان صوت المنشاوي يفتح مسارات جديدة للأمل وهو يتلو «الله نور السماوات والأرض».

أخطط للكتابة عن الملحن أحمد منيب، إعجابي بتجربة الرجل الفريدة جعلني أقرر ضمه للكتاب الجديد، اقترح ابنه خالد أن يجمعنا بيت العائلة، مقر عمل والده القديم، أعجبتني الفكرة، جلست في انتظار أن يقترب الموعد فأبدأ البحث عن العنوان، فوجئت بوصول خالد بأن المقهى أسفل البيت مباشرة.

سحرتني فكرة أن أجلس في الغرفة التي خرجت منها أغنيات تتشابك مع تاريخي الشخصي بطريقة مربكة، أجلس على الكنية أتأمل سحر النافذة الضيقة التي جلس إلى جوارها أحمد منيب، أمامه الشاي بحليب وعلبة دخانه، يصوغ موسيقى لوعة عبد الرحيم منصور وهو يشكو من أنهم «لغوا بينا قالوا لنا ع المدينة.. لما جينا التقينا كل شيء فيها ناسينا»، الأغنية التي تلخص قصة حياتي تقريبًا، الشاب الذي ودع مراهقته ومنزل أهله في اللحظة نفسها باتجاه العاصمة المدينة، التي كان يعتقد أنها تخبئ خطط تنفيذ أحلامه، لتتوالى الأحداث والمقالب واللوعات.

أجلس في الغرفة التي فُتحت فيها قارورة السحر لتخرج الأغنية الأعظم في التاريخ، «شبابيك.. الدنيا كلها شبابيك»، الأغنية التي تفصح لي كل

خمسة أعوام عن سر جديد تخبئه، أخطو في الحياة وأنا أو من أنني سرقت عمري من أحزاني، سرقة مشروعة تعينني على مواصلة الطريق، ومثل كثيرين في هذا البلد «طرحت جنايني في الربيع الصبر»، الصبر الذي أصبح عندي هواية كما قال صلاح جاهين، الأغنية التي شرحت لي نفسي كشخص خجول ممتن لتجربة الحياة، يود لو أنه يقضي حياته يحب بس يكون حناني ورا الشبايبك.

طالت جلستي مع أبناء أحمد منيب نقيب بين أوراقه وصوره وذكريات كل الكبار الذين مروا من هذه الغرفة الضيقة، كان منيب حاضرًا، يطل بابتسامة وقور أسرة عبر صورة له بالعقال الخليجي، قالوا إنها التُقطت له عندما عمل في بداية السبعينيات في أحد فنادق السعودية. حصّلت من المادة ما شعرت بأنه يكفي لكتابة شيء جديد عليه القيمة، عن رجل اخترع لنفسه طريقًا وطريقة، عائدًا إلى البيت كانت تطاردني ابتسامته وصوته يغني: «رحلة يا رحلة.. يا صعبة يا سهلة».

شعرت بالامتنان لآلة الزمن التي دفعت بي إلى قلب هذه الغرفة الصغيرة لساعتين، تمنيت لو أن الفرصة تتكرر، وسألت نفسي أين أود أن تتركني آلة الزمن هذه المرة؟

٢

لم تمر في بالي سنة بعينها، فكرت في عائلتي. لكل عائلة فترة عز، صادف أن كانت فترة عز عائلتي في الثمانينيات، العائلة كما تحكيها الروايات العالمية، وددت أن تتركني آلة الزمن هناك قليلًا.

الأسرة في أحلى أيامها متماسكة سعيدة متجاورة، الصورة كاملة بين أبنائها، وزير ينزل البلد كل مرة بموكب واحتفالية، وأعضاء برلمان لا تنقطع الوفود عن منادهم، وكبار في العاصمة نزورها على حسهم، وآخرون في مدن الخليج يغرقوننا بالهدايا، الأفراح لا تنقطع، لا تعرف متى يبدأ الاحتفال، قبلها بأسبوع الجميع مشغول بالليلة الكبيرة، ويُجرون بروفة لها كل ليلة، جناين الفاكهة تصب إنتاجها في كل البيوت، تقارن سيداتها كل ليلة بين مانجو كل جنينة وهي تقطعها للأحفاد، سيارات فارهة وأخرى أنتيكة، وجرارات زراعية تتعلم عليها أول دروس القيادة، وسباقات

للدراجات تنتهي كل ليلة بمصاب جديد، نواسيه بالإقامة في غرفته، نأكل ونشرب وندخن خلسة حتى يشفى، سهرات لا تنقطع ولمّة في الفاضي والمليان، السفر للمصيف بالدور حتى لا تُترك قاعات العائلة ومناورها فارغة، دروس لا تتوقف، المودة والعطف، الاحترام وتوقير الكبير، كيف تحافظ على كرامة الآخرين، الطريقة التي تتعرف بها على حدودك والمسافات التي يجب المحافظة عليها، كيف يكون الأدب مع الجيران وأساتذة المدرسة والضيوف، آخر صف من الجدود والجدات، كائنات تحنو بلا هدف، وتغضب بلا سبب مقنع، وتخاف عليك من نفسك التي يجيدون قراءتها أفضل من الأب والأم، الأسرار التي يعرفونها ويديرون بها المسائل كلها، والنظرة التي يحسمون بها الشطط، والكلمة التي لا تقبل المراجعة، والأحكام التي لا مجال للتحايل عليها.

هيبة وقفة العزاء، والحزن الذي يلف بلدة بأكملها، وأيام ثلاثة لا يتوقف فيها المقرئون، وموائد الطعام المفتوحة للمعزين القادمين من بلاد بعيدة، إفطار رمضان وجلسات ترتيب مسؤوليات البيوت عن إفطار المنذرة، كل بيت له أيامه، وكل عائلة تعيد توزيع المهام على الصغار قبل الكبار، ثلاثون يومًا تتنافس فيه البيوت لتدليل رجال العائلة، ويتنافس رجال العائلة في الاتفاق مع أغلى المقرئين والمداحين، ويتنافس الأطفال في خطف البهجة بين الصواني التي تتحرك جيئة وذهابًا من المغرب إلى السحور.

العائلة في حضور متوهج يجعل لكل شيء طعمًا، سهرات مشاهدة المسرحيات والأفلام الهندية، انقطاع الكهرباء بالساعات ليلاً، وما يترتب عليه من أمسيات تعج بالضحك والحكايات والونس العجيب، خرطوم المياه الذي أتنافس أنا وأبناء العمومة على سحبه عصر كل يوم للرش أمام البيت، والمنذرة لتلطيف الأجواء، المشاوير التي يرسلك فيها الكبار لتعود بالتموين أو السجائر أو العلاج أو الكيف، الأموال التي تجمعها طوال الوقت من الكبار لأسباب لا تنتهي، النجاح، العيد، الشطارة، المطابخ العامرة، الخطط التي ترتبها مع الخال أو العم الأصغر لسرقة النملية التي تخبئ فيها الجدة أو العمّة مناب الغائبين عن سفرة الغداء، قصص الحب العابرة الصامتة، صور عارية تلف بين الصغار خلسة، أغان جديدة حلوة تظهر كل فترة، حميد الشاعر يوزر المدينة، ابن العم يهاديك بميادة تغني «الحب اللي كان»، أصدقاء في كل مكان، ومحبة تنتظرك في كل

بيت، أمهات يدللونك، وآباء يطاردون فيك رجولة مبكرة، أحزان حولك لا تفهمها، لكنك تتعاطف معها، وضحك صافي يحرر روحك، طمأنينة تفوق حاجتك، ونوم عميق لم يحدث بعده ما يشبهه أبدًا.

٣

كانت المسقعة حاضرة على مائدة الغداء، تلتها القيلولة المقدسة، ساعة النوم التي تمنح اليوم بهجة، بداية جديدة يمكن الاحتفال بها في حضرة براد شاي العروسة.

ساعة العمل الليلية مخصصة لتدوين ما دار على هامش جلسة اليوم، ورسم ملامح خطة الكتابة عن منيب. هاتفت أمي وأبي، المكالمات اليومية التي اتفقنا دون سابق ترتيب على أن تكون بعد التاسعة، تتبادل الاطمئنان على بعضنا، وملخص أحداث اليوم، وحوارات عشوائية تبدأ بـ«تغديتوا إيه النهارده؟»، وتنتهي بفقرة الدعاء التي تبتكر فيها أمي أمنيات تجعلها مطالبة بالتفسير: ربنا ما يخليهوملك من إيد، يرزقك الصحة والرضا ويجعلك الوارث منهم، تمشي قدامي وتوصلني.

بعد نوم الطفلين يحين موعد براد الشاي الثاني في رفقة عاليا.

٤

بخلاف خمسة عشر عامًا في منزل واحد، وطفلتين، وأكثر من ٤٧٢٠ براد شاي، وثلاث كنبات، ولسوعة شمس طريق الصعيد، تجمعني بزوجتي المسلسلات القديمة، قضينا ليالي طويلة تتابع الإعادات بالشغف نفسه، ما يقرب من خمس عشرة إعادة لمسلسل «لن أعيش في جلاب أبي»، ثلاث إعادات لمسلسل «رأفت الهجان»، سبع إعادات «ليالي الحلمية»، أربع إعادات «الشهد والدموع»، ومرات لا أثق في صحة عددها لإعادة «دموع في عيون وقحة» و«ضمير أبلة حكمت» و«حديث الصباح والمساء»، تتسلل حوارات الأبطال وجملهم الخالدة إلى حواراتنا اليومية بسهولة، نجد فيها ما لا يسعفنا به التعبير عن أنفسنا أحيانًا، تصارحنا ذات ليلة بالأغنية التي تذكرك كل واحد فينا بالآخر، ذكرت أغنيتها، وعندما جاء دوري قلت لها تتر مسلسل «عمر بن عبد العزيز» وغنيت لها «الراشد العمري.. على الطغاة قوي...»، كانت لحظة مؤثرة.

مررت بتجربة زواج لم تعرف النجاح، لم أحسم أمري بعدها، هل أكرر المحاولة أم من تمام العقل أن أحمد ربنا على النجاة، وأعبر الكوكب

خفيًا بطولي. في فترة قصيرة فاتحني أصدقاء لا رابط بينهم سوى كارييه نقابة الصحفيين في ترشيح فتاة يرونها مناسبة لي، اتفق الثلاثة دون سابق ترتيب أو معرفة على اسم «عاليا». أدهشتني المفارقة ولفنت نظري، لكن لم تكن هناك مساحة مشتركة تجمعني بصاحبة الاسم تسمح لي باستكشاف ما وراء الترشيح، حتى طُلب مني أن أكتب صفحة أسبوعية لإحدى الصحف التي تشغل عاليا منصب مديرها الفني المسؤول عن تصميم ورسم صفحاتها.

ظهرت الصفحة، وتراصت بين السطور رسومات كاريكاتير لصديق أحبه، اتصل بي يسألني عن رأيي في الصفحة، قلت له: زي الخرا. فتفضل مشكورًا بنقل رأيي حرفيًا إلى المدير الفني.

يقدم زملاء كثيرون كتاباتهم مصحوبة بالكاريكاتير، كنت أرتاح للفوتوغرافيا وأراها تشبه ما أكتبه وتعبير عنه بطريقة أفضل. تشجعت وقررت أن أنقل وجهة نظري للمدير الفني لتغيير طريقة تصميم الصفحة. كان اللقاء جافًا، قيل لي فيما معناه اتفضل شوف شغلك وسيينا نشوف شغلنا. يدللني رؤساء التحرير والرسامون والزملاء، ويتسابقون في إبداء المحبة والتعبير عن الرغبة في عمل مشترك، واليوم أقابل بصيغة لم تمر عليّ منذ احترفت الكتابة. خرجت من مكتبها أفكر في الأصدقاء الذين رشحوا لي آخر واحدة تصلح كرفيقة طريق، شكوت ما حدث لأحد الأصدقاء، فقال لي ما نقله عني الصديق الرسام للمدير الفني بمصداقية فجّة، قلت لنفسني عندها حق.

كنت أفكر في طريقة للاعتذار بأقل نسبة مخاطرة، سبقتني واتصلت بي قائلة إنها تدعوني لفنجان قهوة لمناقشة الطريقة التي أقترحها لتصميم الصفحة، كان واضحًا أنها تجتهد لتبديد الذعر الذي اختبرته في مكتبها مع الحفاظ على المقامات والمسافات.

كانت المقابلة بداية خيط، في نهايته أرسلت لها في الثانية صباحًا رسالة على هاتفها تقول: «عارف إنها بايخة إن الواحد يعرض على واحدة الجواز في رسالة بربع جنيه، بس يعني يحاول أقلل حجم خسارة الرفض. ملحوظة: ربع جنيه الرسالة مالوش علاقة بربع جنيه المهر».

في أول خروجة، جلسنا في أحد مطاعم المعادي الهادئة، كان الصمت

مسيطرًا على جلستنا، حتى بادرته قائلاً:

- مغلش الكلام تايه مني.

فابتسمت خجلاً.

- حاسس إني متلخبط شوية.

قالت:

- لا مفيش لخبطة ولا حاجة، الأمور بسيطة.

- لأ حاسس إني دايم وبطني مقلوبة، ممكن تيجي معايا أقيس الضغط؟

في الصيدلية المجاورة للمطعم وعندما رأيت الرقم الذي ظهر على جهاز قياس ضغط الدم، عرفت أنها لم تكن أعراض كركبة رومانسية، لكنها أقرب لذبحة صدرية.

اتصلت بقريبة لها فقالت إنها ستنتظرنا في أحد المستشفيات القريبة، نقلتني بسيارتها إلى هناك، اقترح الطبيب المناوب الذهاب إلى غرفة الطوارئ.

مع المحاليل والعلاجات، وعلى هامش الرقدة في فراش الطوارئ، وبعد تحسن اختلط بأثر الحقن المهدئة، قلت لها كل ما كنت أخطط لمصارحتها به في المطعم.

0

كنت أتقل بالريموت عبر فيديوهات يوتيوب، وفوجئنا بنسخة عالية الجودة لفيلم «يوم مالوش لزمة»، طلبت عالياً أن نشاهده، لا أحب مشاهدة أفلام كتبها أو قراءه كتب نشرتها، سأعثر على أخطاء، أعرف نقاط ضعف ما أنجزته، ويزعجني أنني أعرف الطريقة التي كان يمكنني أن أقدم بها نسخة أفضل، يحضر الناقد الذي يعيش معي ويقدم نفسه بطريقة لا أتمناها لأحد.

لكنني استسلمت، كنت أضحك لضحكات زوجتي، أزعجني قليلاً أن آخر فيلم كتبه خرج للنور قبل تسع سنوات، أصابتنى بعدها لعنة ما قطعت الطريق بنجاح على كل مشروع بدأته خلال هذه الفترة بما فيها فيلم بدأ تصويره بالفعل قبل أربع سنوات ولم ينته حتى يومنا. أفكر في الجانب المشرق للموضوع، أصبح لدي وقت لإنجاز أعمال أخرى، ستكتب أفلاماً

كثيرة جيدة، لكن لا أحد سينجز مشروعًا مثل «صناعية مصر»، كانت لديّ فرصة لكتابة رواية دخلت القائمة القصيرة لجائزة تحمل اسم بابا الشغلانة نجيب محفوظ، أما الأموال فقد سُمح لها أن تتدفق عبر العرايين، أقدم الفكرة والمعالجة، تتم الموافقة عليهما، أحصل على نسبة معقولة من الأجر، ثم يتوقف المشروع، تتكرر القصة كل ثلاثة أشهر تقريبًا، أما زح زوجتي قائلًا البيت مفتوح بفلوس حرام، تضحك قائلة: عملت اللي عليك.

بنهاية الفيلم تبادلنا أنا والزوجة خططنا لليوم التالي، ثم ودعتها على باب قطار النوم الذي تحرك بي سريعًا.

حلمت بنفسى أمر في ميدان التحرير المزدهم برجل ستيني أنيق، يقف فوق رصيف عالٍ، ويعزف على الكمان لحنًا يغرق في شجن مألوف، كان المارة يتجاهلونه بطريقة أزعجتني، فقطعت الطريق ووقفت إلى جواره مبدئيًا اهتمامًا قد يمنحه بعض الثقة، توقف عن العزف وقفز سريعًا ودفعني أمامه قائلًا: مش هينفع تقف، إنت لازم تمشي. كانت الطريقة التي دفعني بها غليظة حتى إنها أيقظتني، اعتدلت في فراشي وكان الألم في ظهري لا يُطاق.

طاردت كل التفسيرات الممكنة للألم الذي أيقظني من النوم. اعتدلت في الفراش لتصحيح وضع نوم قد يكون مؤذيًا، ربما برد سكن العظام يحتاج لقرصين بانادول إكسترا، قد تكون فقرات العنق بحاجة للاسترخاء فلأجرب قربة الماء الساخن، ربما هي عكينة الكابوس الذي تعاطفت فيه مع أحزان عازف الكمان، فلأوقظ زوجتي.

لكن الألم لم يتوقف، فتحت جوجل أفتش عن أعراض الذبحة الصدرية، نهرتني الزوجة وقالت: بلاش كلام فارغ، عد إلى النوم، أنت فقط بحاجة لمشروب ساخن وبعض الدفا.

بعد رشفة من الينسون شعرت بالألم يتسلل إلى كتفي، ثم صدري، بعدها بدأ التنميل يغزو الكفين، قلت للزوجة: مالهش حل غير المستشفى.

الخامسة والنصف، تغرق الطفلتان في النوم، لا أعرف أي مستشفى يمكن أن نقصده، قالت الزوجة: لنترك البنات عند جدتهم. ارتدت كل واحدة معطفاً ثقيلًا فوق ملابس النوم، شعرت رقية بقلق ما، وسألت عما يحدث فأخبرتها الأم باختصار: بابا تعبان شوية.

لسعة البرد بروزت الألم الذي كان يمنعني من أن أفرد ظهري على كرسي السيارة، سلمت الأم الطفلتين للجدة وسألتني عن وجهتنا، قلت لها اسم المستشفى الذي تردد أكثر من مرة أمامي في حوارات عابرة عن حالات طارئة مر بها أصدقاء لي يعيشون في الشيخ زايد، قلت لها: سعاد كفافي.

في الطوارئ قال لي الطبيب الشاب بعد كشف سريع، سنحتاج لإجراء رسم قلب.

حتى هذه اللحظة تعاملت مع ما يجري باعتباره إجراءات روتينية، سقف طموحي كان مُسكّنًا وتشخيصًا يجعلني أفتش عن طبيب جيد في تخصص ما عندما تسمح الظروف، استسلمت للأسلاك وأغمضت عينيّ مسترخيًا من أجل قياسات سليمة، طال الوقت ففتحتهما لأستكشف ما يحدث، لم أجد أحدًا إلى جوارِي، وبعد ثوانٍ ظهر الطبيب الشاب وبرفته طيبان آخران، كان توتر ما قبل الذعر باديًا على وجوه الجميع الذين انصرفوا سريعًا.

هل يجب أن أشعر بالقلق؟

مررت بما يشبه هذه النظرات المرتبكة من قبل، تاريخي المرضي يسمح بأرقام قد تكون مفزعة، لكن سرعان ما يتم السيطرة عليها، عليّ أن أطمئن أطباء في بداية الطريق يشعرون بمسؤولية كبيرة في السادسة صباحًا وليسوا متأكدين من طريقة التعامل الأمثل مع الحالة.

أطلت عاليًا وعرفت من نظرتها أن الأمر ليس بالسهولة التي أعتقدتها، قالت: خير إن شاء الله. قلت: خشي في الموضوع. قالت: لازم تعمل قسطرة.

ظهرت في الأجواء همة غريبة أشعرتني بالقلق، نُزعت الأسلاك، دخل ممرض بكرسي متحرك، وجدتني فوقه في مصعد، في غرفة تقف الممرضة بزي غرفة العمليات، خلعت ملابسي، نمت على سرير متحرك، حقنة تليها حقنة ثم قبضة مليئة بالحبوب، شخص ما يقول دكتور إبراهيم وصل، قلت عندما سمعت: طب الحمد لله، على العمليات فورًا.

كانت الدقائق تمر بين الحلم واليقظة، نمت وأفقت فوق سرير يجري بي في ممر تكاد تخنقني فيه رائحة المطهرات، وقبضتي معلقة في قبضة عاليًا، قلت لها: لو حصل حاجة ادفينيني مع أمي.

شخص ما بماكينة حلاقة يزيل شعر ساعدي الأيمن، بينما ممرض غيره يثبت شاشات بالقرب مني، وآخر يمسح كل جسمي بمادة باردة، حقنة أفقدتني نصف وعيي، ظهر الدكتور إبراهيم، قال: إيه اللي حصل؟ قلت: ألم صحاني من نومي. قال: وصحاني أنا كمان والله. ضحكت. قال: ربما يزيد الألم في صدرك قليلًا تحمل. كنت أغفو وأصحو على توجيهات دكتور إبراهيم لمساعدته، أغفو وأصحو على نغزة مؤلمة، أغفو وأصحو على حمد الله على السلامة، على الرعاية المركزة فورًا.

على سريري في الممر نفسه، لم تكن زوجتي وحدها في انتظاري، كان طابور من الحبايب يقاوم القلق بابتسامات أعرف جيدًا قدر المجهود المبذول لتظهر على الوجوه، على سرير في الرعاية زُرعت الأسلاك من جديد، المزيد من الحبوب والحقن، سمعت أحدهم يقول: سيبوه ينام، ده الحمد لله ربنا نجاه.

بينما أغرق في النوم، كنت أقاوم سؤالًا سيطر على عقلي المشوش: أي

خطر يتكلمون عنه؟ وما الذي يضمن ألا يتكرر وأنا معزول هنا؟ وأين ناسي؟

كنت أروح ببطاء ونعومة لمكان ما، وصلت وكانت بلكونة منزلنا في سوهاج وكان أبي يجلس في انتظاري، قال: برضو كده؟

أرى في أبي شخصية منقذ الشاطئ.

يدقق أبي في المواقف التي تحتاج لدعم شخصي وسريع.

لم يتدخل في أزمات ترتبت على اختياراتي الشخصية في العمل أو العلاقات أو الصداقة، يؤمن أن طفله مقبل على تجربة حياة سيخوضها يومًا ما بطوله، فليفعلها من الآن.

يجلس فوق نقطة عالية أمام البحر، يتدخل حينما يكون الغرق أقوى مني.

في صيف ٨٤ لاحظ ذعرًا تملكني عندما تصادف وقوفي بالقرب من عمي الذي اندمج في إطلاق الأعية النارية من مسدسه على هامش أحد الأفراح، ذعرًا تحول إلى ما يشبه صدمة عصبية، عالجه بأن حول غرفتي الصغيرة إلى ترسانة أسلحة بالتدريج. بدأ بمسدس الصوت الذي أفنني باستخدامه لحظة أذان المغرب في رمضان، طلقات أربع أطلقها من شرفة البيت تخبر المنطقة أن المدفع ضرب، ارتبط الشارع بطلقاتي وصرت نجمًا. بعدها حضرت بندقية الصيد (الرش) مع تدريبات قادها بنفسه، صنع لي خلالها أهدافًا بعيدة على سطح العمارة المقابلة، أتقنت الموضوع حتى اشتكت له جدتي من أنني أطارد ببندقيتي الحمام والأرانب التي يرببها جيرانها، وأنهم يشعرون بحرج تعنفي، ويكتفون بالوقوف بعيدًا بسكين لذبح الضحية التي أصابتها طلقة قبل أن تلفظ أنفاسها للاستفادة منها على الأقل في وجبة غداء، ضحك أبي وسحب أسلحتي واشترى لي دراجة انشغلت بمغامراتها.

في صيف ٨٨ تورطت في الإعجاب الذي انقلب نشاطًا بالجماعات الإسلامية، كان يراقب نزولي لصلاة الفجر في عز البرد. رأته بعد انتهاء الدرس يقف على باب المسجد ينتظرني، لم يكن هناك كلام، أسئلة عن الدرس والشيخ معتمد، رأته يتفحص الكرتونة التي جمعت فيها شرائط الكاسيت، ويعيد تنسيق فوضاها، ثم فاجأني بأنه اشترك لي في رحلة لمدة أسبوع إلى أسوان. كان الغياب لمدة أسبوع في أجواء مبهجة خطة ناجحة، عندما عدت خاض معي حوارًا مطولًا لمحت بنهايته ابتسامه، دخل إلى غرفته وعاد بهدية صغيرة أشرف على تنفيذها بنفسه، مكتبة خشبية لشرائط الكاسيت.

هو محب للأغاني، يحكي دائمًا عن حفل أم كلثوم الذي حضره عقب تخرجه من الجامعة، وعن النظارة المعظمة التي اصطحبها معه ليتأمل تفاصيل الست وهي تغني، أسأله عن الأغنية، يقول: الأطلال، وعن شعوره، يقول: كنت باتفرج على مصر واقفة بتغني. يحب «عودت عيني على رؤياك»، تأملته كثيرًا وهو منسجم معها. أخفى عني سرين عرفتهما كبيرًا، في سن الثالثة عشرة عرفت أنه زملكاوي، وفي الخامسة والثلاثين عرفت أن فريد الأطرش مطربه المفضل، أسأله عن الأغنية الأقرب، يقول: مخاصمك يا قلبي.

قام بتمويل أول عملية شراء شريط كاسيت في مكتبتني، سمح لي أن أختار واحدًا من كشك محطة القطار، فاخترت شريط الفور إم جنون الديسكو، كان التمويل على هامش زيارتي الأولى للقاهرة، اصطحبني معه لينتشلني من وجوم صدمة رحيل جدي «عمر»، كان الفقد الأول الذي أختبره في حياتي، فشلت في الاختبار، وفقدت القدرة على فتح أي مواضيع أو الرد أو التعبير عن ذهولي، وضعت سماعات الـووكمان، وساعدني شبك القطار أن أبدأ التعافي، وفي القاهرة وبينما نتجول برفقة العم في سيارته اختار أبي من بين كل المعالم التي مررنا بها واحدًا، وسألني إن كنت أعرفه، فقلت له: مبنى التلفزيون. سألته كثيرًا وأنا كبير: لماذا اخترت من بين كل مباني العاصمة واحدًا سيصبح ذا علاقة بحياتي وشكلها مستقبلاً؟ يضحك ولا يجيب، أقول له: لقد ألقيت الفكرة في عقلي الباطن، وأظنك كنت تقصد شيئًا ما.

ربيع ٢٠٠٣ أنقذني من الشعور بالأسى، رتبت زيارة لمكة والمدينة برفقة الأب والأم، كنا قضينا في المدينة عدة ليالٍ لمست خلالها معاني جديدة لوجودي في صحبتهم، ثم غادرنا إلى مكة التي وصلنا إليها مساءً.

كانت رحلة الأنوبيس من المدينة شاقّة، في غرفة الفندق اقترحت على الأب والأم أن ننال جميعًا قسطًا من الراحة وننوي العمرة قبل صلاة الفجر، لقي الاقتراح قبولًا، وتمدد كل واحد منا في فراشه، بعد دقائق أرقني شعور أن الكعبة التي لم أرها من قبل على بُعد خطوات، لا معنى لتأجيل الزيارة.

قمت سريعًا، وتوجهت إلى ساحة الحرم.

كانت المقابلة عاصفة ارتج لها قلبي، تأثرت ودمعت عيناى لأننى لم أصبر حتى أحضر هذه اللحظة واقفًا بين الأب والأم، القوسين اللذين يجعلان لحياتى معنى، وتضخمت اللوعة عندما عدت إلى غرفة الفندق فوجدتهما قد غادرا، عرفت أننى أدفع ثمنًا غاليًا لحماقة صبيانية.

عدت إلى الحرم مهزومًا، جلست فى أحد الأركان نادماً على الذكرى التى خططت لصنعها قبل أشهر، وأضعفها بلا معنى.

أذن لصلاة الفجر، وقفت مكانى، دفعنى الزحام لأنتظم فى الصفوف، كنت أتقدم واحدًا تلو الآخر، حتى وقفت فى أول صف، كانت الكعبة فى مواجهتى، دمعت عيناى وقلت آسف يا رب، قال الإمام الله أكبر، شعرت بطرق حان على كتفى، التفت، كان أبى فى الصف الذى يلينى، ابتسم وكان فرحًا، قال: شكرًا. وقلت: الله أكبر.

شئاء ٢٠٠٥، وبعد خمسة وأربعين يومًا عمر زيجتى الأولى، شعرت بأننى فى مكان لا يناسبنى ولا يشبهنى، جمعت متعلقاتى وكتبى وغادرت شقة الزوجية ليلاً باتجاه شقة العزوبية، أعرف أننى سأخوض حربًا خاسرة سنتتهى برجوعى لمكان لن أشعر بالراحة فيه يومًا، سيتدخل كبار العائلتين بحكمة لا مفر من حزمها، سأتهم بكسر قلب أكثر من شخص، أخطائى ستضعف حجتى، ثمة إهانة وقعت ستجعل المواجهة مرتعًا للمزيد من الأخطاء. اختبأت فى شقتى وصارحت أبى بالكواليس التى لا يعرفها أحد، تعاطف معى، سألنى عما أخطط له. قلت: ألا أعود وأن يمر الانفصال بسلام. قال: اندر. قلت: خروف.

توجه أبى بصحبة زوج شقيقتى إلى جلسة الصلح والمصالحة، وذهبت إلى عملى، كنت أعرف أن المهمة مستحيلة، أبى بمفرده فى مواجهة أسرة، لن يدافع أبى عن أخطائى، سيعتذر عنها، ولن يقاوم إن قال الطرف الآخر إنهم «شاريين»، أتعسنى الندم على الزج بأبى فى موقف من هذا النوع.

رن الهاتف وكان زوج شقيقتى، بصوت خافت قال: عمو يقولك جهز الخروف.

سألته عن تفاصيل الجلسة، قال: لا تهتم وشوف حالك. ويبدو أنه قد أوصى زوج شقيقتى بالكتمان نفسه. لم تكن الجلسة سهلة، ويبدو أنه قد بذل مجهودًا عظيمًا لينتشلنى، يعلق على الموضوع بجملته الشهيرة التى

تبدو سهلة: أخذ الحق حرفة.

هو حرفجي بطبعه، لديه دائمًا خطة وطريقة، اشتهر في العائلة بكونه الأمل الأخير لأبنائها راسبي الثانوية العامة، يضع «أحدهم» الفرصة تلو الأخرى في رسوب متكرر، حتى يصل إلى المحاولة الأخيرة قبل ضياع الأمل تمامًا، فيتم تسليم «أحدهم» لأبي ليتولى مهمة إنقاذه، يقيم معنا في غرفة مستقلة، يخضع للمراقبة والتوجيه والمتابعة ومراجعة المستوى مع المدرسين، ويعود إلى أهله مع آخر يوم في الامتحانات. رأيت خطته تنجح عدة مرات، راقبته وهو يقسو ويدلل، يثير المرح وينشر الرعب، وأستمتع برؤية أثر ما قدمه على مصائر مراهقين تفخر بهم العائلة كبارًا.

شياء ٢٠٠٧ كنت أتناول طعام الغداء مع صديق، توقفت اللقمة في حلقي، غبت عن الوعي لثوانٍ، مررت خلالها عبر نفق مظلم ترتج أركانه بفعل صرخات حادة مفزعة، أفقت فتركت صديقي بدون وداع وخرجت مسرعًا إلى الشوارع المحيطة أخترقها بلا وجهة محددة، أحاول أن أرتب أفكارى وأنظم الرعب الذي اجتاحني.

قبلها بأسابيع كانت الضغوط تتوالى.

استيقظت صباح يوم العيد على مشهد الأسرة ملتفة حول التلفزيون، تتابع مشهد إعدام صدام حسين على الهواء.

بعدها بأيام رحل صديق أحبه، سقط من شرفة منزله أمام طفله الصغيرة.

بعد أسبوع كنت أواجه تهديدات عدة، الفصل من العمل لكثرة الغياب، سحب السيارة التي توقفت عن سداد أقساطها، علاقة مرهقة تبتلع كل خطط الانسحاب، بدايات جديدة تحتاج لأكثر ما ينقصني؛ التركيز والثقة والاهتمام.

قضيت عدة أيام أصارع أشباحًا من مختلف الأنواع، الخوف من الموت، نوبات الفزع، الشعور بالذنب، الوحدة القارسة، الكوابيس المؤلمة. الخوف من أن يتكرر توقف اللقمة في حلقي أبعدني عن الطعام، عشت على الزبادي والعسل، أنهى الكوب ثم أتقيأه وأبكي.

دائرة مفرغة، كنت أُلّف حول نفسي، اتصلت بالأستاذ بهاء جاهين، شرحت له ما أخوضه، طلب مني أن أتماسك وأتحمل لأسبوع، إذا لم تنتهِ الأعراض

فلا مفر من زيارة طيب نفسي.

مساءً لمح أبي في صوتي عبر مكالمتنا اليومية أن الأمور ليست على ما يرام، حكيت له عن خطة الأستاذ بهاء.

صباح اليوم التالي، كان يقف أمام باب شقتي يحمل حقيبة سفره التي اشتريتها معًا من مكة، قال: سنقضي الأسبوع معًا.

أبي مسؤول تدميس الفول في بيتنا، مهمته التي أتابع شغفه بها منذ كنت طفلًا، يقضي الليل يتنقل بين الدماسة التي ترقد فوق نار هادئة يزودها بالماء، وبين علبه سجائره وصحف اليوم، وكان الفول الطازج هو الطعام الذي اعتمده كعلاج للكآبة التي احتلت أركانني، وكان علينا أن نراقبها لأسبوع قبل أن نتخذ بخصوصها أي قرارات، قضينا أسبوعًا عالجنني فيه الأب بالتقشف، الفول المدمس والسجائر الكليوباترا، أدخل الفراش ويجلس في أحد أركان الغرفة يقرأ القرآن بصوت عالٍ حتى أروح في النوم، اتصل بأصدقائي ليزوروني على العشاء، وأضاف إلى أطباق الفول بعض البيض المقلي والجبن الرومي على سبيل الاحتفال، سحبتني من يدي لصلاة الفجر في مسجد السيدة نفيسة، وهناك انتحى جانبًا بإمام المسجد الذي اقترب مني بعدها، يوصيني أن أطرد الشيطان وألزم التسبيح والاستغفار، وطاردني أحد المنتجين طلبًا لمقابلة للاتفاق على عمل أكتبه، كنت أهرب مؤجلًا كل التزام حتى يمر الأسبوع، لاحظ أبي الأمر وقال ستذهب لميعادك وسأكون معك، اصطحبتني مثلما كان يفعل مع طفله أيام المدرسة الابتدائية، وقف على باب الشركة يلوح لي قائلاً إنه سينتظرنني على أقرب مقهى، خرجت من الموعد بشيك به عربون لا بأس به، فتشيت عنه وجدته يجلس في كافيه شيك، وبطريقة لا أفهمها استطاع أن يكسر النظام الذي رأيتُه في المكان، وضع الجرسون أمامه براد شاي كشري وكوبًا زجاجيًا «خمسينة»، استقبلني بابتسامة، أخرجت له الشيك، قال: الصبح تصرف المبلغ وتخرجه كله لله. قلت له: المبلغ كبير. قال: يا دوب يشتري اللي عايزينه.

بنهاية الأسبوع كانت الأمور استقرت، خفت أن أخذل أبي، كنت قبل فترة بعيدة أخاف من تكتيكه في استخدام الضرب كعقاب، بحركات قليلة كان يترك ألمًا من النوع الذي يقوي مهارات كلام الواحد مع نفسه، يسلمني لحوارات تجعلني أتعلم الأدب ذاتيًا، منحه الله كفا عريضة بأصابع قصيرة

لكنها فحمة، قوية وغدارة مثل الكهرباء التي لا تتوقع اللحظة التي تمسك بك فيها.

هذه المرّة خفت من لوعة رجل انتصفت ستينياته وحيدًا بعد رحيل أشقائه وأقرب أصدقائه، رأته يبكي ثلاث مرات تصادف أن كانت كلها في لحظات رحيل ابن عم أو شقيق أو صديق، رجل يبذل مجهودًا عنيقًا ليخبئ رقة ما، تليق بطفل ذاق اليتيم في سن العاشرة.

لكنها رقة لا تنفي الصرامة، في مصيف ٨٦ بتنا ليلتنا الأولى في الإسكندرية في شقة مفروشة، استيقظت صباح اليوم التالي وخرجت إلى الصالة، كان أبي يقف على باب الشقة، يحمل مسدسه المرخص الذي ورثه عن أبيه، في مواجهة رجلين ذابت ملامحهما من الخوف، سمعت أبي يقول: ساعة وهنسيب الشقة ما أشوفش وش حد منكم. رزع الباب وطلب من أمي أن تعيد ترتيب حقائب السفر التي فرغتها للتو، سمعت أبي فيما بعد يحكي همسًا للأم أنه ضبط زوجة البواب مع رجل يبدو أنه كان أحد الواقفين أمام باب الشقة، و خوفًا من الفضيحة هجم الرجل ليطرد أبي قبل أن يفضحه هو وصديقه، قابل أبي التهديد بتهديد مسلح ليكون واضحًا أننا سنترك الشقة لأسباب لا علاقة لها بالخوف منه.

أفكر في السبب الذي جعل أبي أول شخص يزورني في الرعاية المركزة، كلمة النجاة التي سمعتها قبل أن تسرقني غفوة المهدئات استدعت الشخص الذي ارتبطت به الكلمة في وجداني، أما سؤاله المليء بالعتاب: برضو كده؟ فهو ملخص العلاقة بين رجل يبحث عن سلام ما، وابن يبده بسهولة كل فترة.

استيقظت في واحدة من أكثر خمس غرف مقبضة في الشيخ زايد. صمت حذر يقطعه صوت أجهزة النبض، تيت متقطعة قادمة من أكثر من جهاز، من بعيد يطل صوت خليجي يقرأ قرآن، كمية من الأسلاك تخرج من جسدي تقيد حركتي، أشعر بجوع شديد، الحقيقة كنت في حاجة أكبر لخمسينه شاي وسيجارة، والمأساة كانت رغبة ملحة في التبول.

لم أعرف كيف يجب أن أتصرف، جربت جميع طرق النداء الممكنة مستخدمًا أغلظ طبقات حنجرتي الغارقة في كسل بطعم البنج: بسست... أيوووه يااااا... لو سمحت... لو سمحت... لم أتلقَ ردًّا، تتبعت مسار الأسلاك ففهمت أنها تقيس العلامات الحيوية، لن يقتلني نزعها.

قمت أحاول السيطرة على الدوخة بحيلة قديمة تعلمتها، أن أعد من واحد لعشرين بالعكس، أزحت ستارًا رقيقًا ولم أفهم طبيعة المكان الذي أقف فيه.

لا شيء يدل على الوقت؛ ليل أو نهار، لا نوافذ، إضاءة خافتة، عدة غرف داخل مساحة كبيرة، كل غرفة جدرانها ستائر قماش، لا ساعة حائط، تلفزيون في آخر الغرفة مثبت على بث مباشر من الكعبة، وصمت قطعه فجأة صوت سيفون، وباب بالقرب مني يفتح وتخرج منه أبله فاتن.

توقفت مذعورة لثوانٍ تتأملني، ثم جرت ناحيتي، سحبنتي برفق للفراش وأعدت تركيب الأسلاك، ثم بدأت تلتقط أنفاسها، قالت: لازم تاكل.

قالتها بلطف جعلني أستسلم، اكتملت اللطافة بأن عادت بصينية عليها طعام المستشفى، ومن بين الأطباق كانت هناك سلطانية صغيرة، نزعت السيلوفان وسحبت ملعقة من محتواها وقربتها من فمي، استغرق القرار حوالي خمس ثوانٍ، أنا أمام شخص غريب بيأكلني في بُقي، ملاك رحمة يضع القليل من الكحل وابتسامته مألوفة، الرفض سيكون قلة ذوق، والقبول به شبهة مياصة، فضلت الحل الأخير وفتحت فمي، لم تكن صدفة أن تكون الملعقة محملة بالمهلبية.

وصل الطبيب، راجع القياسات ثم سألني عن ألمني اتخاذ القرار المعجزة بالتوجه إلى المستشفى سريعًا، قال: عادة يهمل من يصاب بهذه الآلام فجرًا الموضوع حتى يتوقف القلب ثم المخ، وتبدأ غيبوبة يندر النجاة

منها.

كان يتكئ على مخارج الحروف بالطريقة التي يتوجب عليّ معها أن أشعر بالفخر والثقة بالنفس، لكن الخضة هي التي حضرت، رعب أنك كنت في خطر لا تفهمه، طفل يلعب في لوحة الكهرباء. قلت له: شعرت بألم شديد لم تفلح معه حبات البنادول أو الينسون أو قرية الماء الساخن ففكرت أن أتوجه إلى مستشفى يقدم مسكنات من النوع الفاخر الذي ينهي المأساة سريعًا.

أخبرته الممرضة بفعليتي، انزعج وطلب مني أن أستسلم تمامًا للتعليمات، قالها وكان صارمًا: إحنا مش بنهزر، إنت جاي في جلطة في الشريان التاجي.

جلطة؟

كبرت الخضة، سألته: من إيه؟ قال: هنشوف.

كانت توجيهاته غير قابلة للنقاش، سأظل تحت المراقبة في هذه الغرفة المقبضة لمدة ٧٢ ساعة على الأقل، بعدها قد أخرج إلى غرفة عادية، ممنوع الزيارات، التبول في قسطرة، الالتزام بالتعليمات، وقياسات لكل شيء كل أربع ساعات.

بينما أفكر كيف يمكنني أن أبتلع كل هذه الضغوط التي ألقاها الطبيب في حجري وانصرف، كان قريبي يزيح ستارة غرفتي الصغيرة ويدخل، قبّل يدي وطمأنني، تبعته إحدى قيادات المستشفى، كان زميلًا له في طب قصر العيني، راجع ملف العملية والتحاليل، وأوصى زميله بي ثم انصرف.

خلخت زيارة قريبي القيود التي كانت تنتظرنني، أصبحت زيارتي سهلة ولا تخضع أصلًا لمواعيد الزيارة، تستطيع زوجتي أن تمر بي لدقائق كل ساعتين، كانت انفراجة عظيمة خفت السجن الذي أرقد فيه.

لكن ظل السؤال قائمًا يحير الجميع: ما سبب الجلطة؟

تحاليلي الأخيرة كانت جيدة، أذخ بمعدل يمكن اعتباره مقبولًا، لم أتعرض لـ«حاجة تزعلني»، أصابتنني الآلام أثناء نومي الذي سقطت فيه عقب مشاهدة فيلم كوميدي من تأليفي.

صارحت أبله فاتن بما يدور في دماغي، فقالت بأسى شديد: أومال إيه

بس؟ فكرت قليلاً وقلت لها: غالباً هي عن مجمل أعمالي.
أنا ضحية زواج الأقارب، أبي وأمي أولاد خال، وأنا أول الأحفاد، القطفة
البكر في الجيل الثاني، عن عائلة أبي ورثت السكر النوع الثاني والصلع،
عن جدي لأمي ورثت الضغط العالي وضيق الشرايين، أنا صاحب أول
جلطة في التاريخ الصحي الحديث للعائلتين، تواسيني أمي كثيرًا بأني
ورثت عن جدي حب القراءة والثقافة، ويجبر الأب خاطري بأني ورثت
الطيبة، يبذلان ما في وسعهما للغلوشة على قرار لم يكن محل تحذير أو
تنبيه في منتصف السبعينيات، أخذت وش الحلة بمفردي، وحميت الأحفاد
الذين وصلوا بعدي من ورث ثقيل، وبقيت آثار هشّة تظهر على أحدهم كل
فترة بلا خطر حقيقي، الحمد لله.

يمكن اعتبار هذه الزبجة واحدًا من مفاتيح ارتباكات كثيرة تزور الجسم من
ساسه لراسه حرفيًا، من الفلات فوت، مرورًا بطنين الأذن، والوسواس
القهري، والاستجماتزم، نهاية بالأمراض الصريحة التي تسلمت رايتها،
السكر من الأب والضغط من الأم.

هناك أيضًا الحنين بأثر رجعي.

يحدث أحيانًا أن تصطدم ركة الواحد بمنضدة قصيرة، أثناء عبوره الصالة
بحثًا عن شاحن الموبايل، وبعد أن يعثر على الشاحن ويوصله بالهاتف،
ويفتح فيس بوك بحثًا عن بعض التسلية، يشعر بألم الخبطة التي وقعت
في بداية الجملة.

نسخة مما حدث معي بعد أن تركت بيت أمي بربع قرن، داهمتني أحزان
الغربة مؤخرًا، بعد أن أصبح لي بيت وأسرة وعمل وحياة مستقرة، يمكن
اعتبارها وطنًا جديدًا، صحوت في يوم يزن في رأسي السؤال: «إيه يا بلاد
يا غريبة، عدوة ولا حبيبة؟»، حاولت أن أضبط الثغرة التي نفذ منها هذا
الطوفان لأرممها، لكنني لم أجد واحدة يمكنني أن أتعامل معها، محض
حنين قاتل يؤرقني، أبتلعه كل مرة بطريقة ما، زيارات للبلد بمناسبة
وبدون، تحويل دقيقات الحنين لكتابة تعالج النوبات مرة وتفشل مرة،
أهاتف أبي وأمي وابن عمي وأختي وأصدقاء الماضي، أنتهز خلال المكالمات
أي فرصة لفتح باب الكلام عن الماضي، أجمع تراكات المراهقة في بلاي
ليست وأخفف الإضاءة وأستلقي، أنتقل بين النوافذ التي تفتحها كل أغنية،

أطل من كل واحدة على مدرسة ونايٍ وغرف مراهقين وفصول مدارس وبائعي طعمية وأكشاك صحف وأحباب رحلوا، بيوت وموائد وشرفات وقصص حب عابرة ومصائب صغيرة، وأسرار ونكات وحناقات وعاهات مستديمة تطل فجأة كورود مجففة بين صفحات كتاب الكيمياء. صرت معروفاً بين الزملاء والقراء بـ«كاتب النوستالجيا»، يعتقدون أنها موهبة أو أنني اخترت خطأ أقدم من خلاله نفسي ككاتب شاطر، لا يعرفون أنني كتبت الثمانينيات في أكثر من عشرة كتب ومئات المقالات بحثاً عن طريقة للعودة إلى هناك، في كل كتابة كنت أحاول، بس ما فيش فايدة.

العب حالياً ثلاثة أدوار في الفيلم الذي أقوم ببطولته منذ منتصف السبعينيات.

زوج وأب.

كاتب.

مواطن يعيش في الشيخ زايد.

قليل من التدقيق يكشف أن السنوات الأخيرة كانت الأصعب في دراما كل شخصية، لا يمكن اعتبارها الأسوأ مقارنة بأفلام أخرى تُعرض في دور قريبة، لكن كل شخصية تعيش الأيام الأثقل في الفترة اللي يُفترض أن تكون الأفضل، انتصفت أربعينياتك، مستقر مادياً ومهنياً واجتماعياً، وعلى وشك الدخول في مرحلة لطيفة بها مساحة لالتقاط الأنفاس. لكن لتفصيلات درامية أكبر من قدرات الواحد، أصبح ما يميز هذه الفترة هو كرشة النفس التي لم تتوقف يوماً.

تجري كرب أسرة ليس بحثاً عن خطوة إلى الأمام، لكن من أجل الحفاظ على النقطة التي تقف فيها، تم تجميد أي أحلام مستقبلية لأن تكلفتها أصبحت نوعاً من الهوس، تهشمت مدخراتك بقرار من البنك المركزي وأصحابه، تضخمت تكلفة المعيشة وأصبحت مطالباً بالمزيد من العمل، فتظهر دراما الشخصية الثانية. الكاتب الذي انهارت في عز نجاحه صناعة الصحف، وأصبح تزوير الكتب أمراً واقعاً لا يشغل بال المسؤولين، وباتت صناعة الدراما محكومة بطريقة تفكير لا ترتاح للتعامل معك ومع أفكارك، فساد في منح الفرص يجعل عديمي المحتوى مسؤولين عن صناعة محتوى البلد. تبدأ كل فترة مشروعاً جديداً ثم تظهر الظروف الغامضة

التي تقطع الطريق على إتمام ما بدأتها، تسرق فرصًا وتقطع خطوات يتم بترها بلطافة، ومع ذلك لم أتوقف. أواجه الضغوط بالبحث عن أبواب جديدة، يخبئ الله رزق بيتك في أماكن لم تمر ببالك، تواجه ضغوطًا يوميًا مثل أي صناعي مصري يصحو كل يوم على باب الله، لا خطة واضحة لديه سوى البحث عن الفرص أو انتظارها مع حمد لله لا ينقطع على نعمة الستر التي تقدم نفسها كل يوم كمعجزة.

أما الشيخ زايد فقد ضاعت، عرف الكبابجية طريقها فتحولت إلى جريل يعمل منذ الظهيرة حتى تحترق النجوم، أو كما قال أحد الأصدقاء أصبحت أذهب إلى العمل ورائحة البدلة طرب ضاني، سُرقت الحدائق العامة وحولها رجال الأعمال إلى ملاهٍ للأكابر، وما تبقى منها تحول إلى محطات وقود تقدم الفطير المشلتت والقهوة الرديئة وساندويتشات الكبدة البرازيلي المجمدة، أصبحت البيوت تطل على محلات الكاوتش ومستقر قمامة المطاعم، زحام ضاعت معه السيطرة والنظام، وأصبحت تصحو كل يوم على محاولات إصلاح ما أفسده تطوير مدينة كنا ننزل شوارعها بالبيجانات لشراء مستلزمات بيوتنا.

سألته أبله فأتى بما أقصده بـ«مجملي أعمال».

احتفظت بالإجابة الأصلية لنفسه وقدمت لها هاي كوبي ترضيها، قلت لها الظروف الصعبة وفلسطين والتدخين وقلة الرياضة وتشجيع الزمالة. ضحكت، شعرت بأن الوقت مناسب لكسر بعض القواعد، سألتها: ينفع أشرب قهوة؟ ردت بسؤال: قهوتك إيه؟

أزيج الستار فاعتدلت، كنت أعتقد أن القهوة حضرت سريعًا، فوجئت بعاليا ونهال شقيقتي، قالت نهال: ماما بتتصل بينا كلنا من الصبح، ومش عارفين نرد عليها نقول لها إيه!

حضرت سيرة الأم فشعرت بالخوف للمرة الأولى منذ وصلت إلى هنا.

هجم السؤال ولم أحاول أن أتفاداه، أفكر ما الذي قد يجعلني أخاف؟

يخبئ هذا السؤال واحدًا آخر، هل حققت ما تحلم به؟

أكلت على مائدة رحمن الحاجة صفية في الدقي، وقطع لي الشيف نصرت بنفسه شرائح الستيك في مطعمه الغالي بدبي.

فاتتني محطة القطار في طريقي لزيارة أهلي، لم يكن معي من المال ما يكفي لشراء تذكرة عودة من المحطة القادمة، لاحظ اضطرابي شاب لطيف فأقرضني مبلغًا حللت به المشكلة. وعدت إلى بيتي ذات يوم أحمل شيكًا بمبلغ كبير تقاضيته مقدمًا لعمل لم أسع له، وبقيّة مستحقّاتي المتأخّرة عن عمل قديم، ورسالة على الموبايل تخبرني بتحويل دولارات أتعابي عن مشاركتي في أحد المعارض، دخلت البيت بشرة لم أخطط لها، رقم كنت تسخر مع أصدقائك أنك لم تمسكه بيدك يومًا ما.

سمعت مديح عم أحمد صاحب المقهى المتر في متر بوسط المدينة بخصوص ما أكتب، وشعرت بعدها إنه خلاص لا نجاح أكبر يمكن أن يحققه الواحد بعد ذلك، وسمعت مديح أساتذتي وأكابر المهنة وتكرر الشعور نفسه.

بدأت الطريق بإلقاء قصائد الكبار على أصدقائي وكأنها من تأليفي، إلى أن قرأت اسمي مكتوبًا على أغلفة كتب وأفيشات أفلام سينما وأغانٍ، قدمت كل ما سبق بالطريقة التي أحبها، أعمال ستجعل سيرتي إذا ما حضرت محاطة بقدر ما من اللطافة.

تنقلت وحاولت ألا أتوقف قدر استطاعتي، مشيت على الجليد في أصفهان، الممرات الضيقة فوق جبال اللاذقية، نمت في صحراء سيناء أراقب النجوم، عبرت نهر الأمازون في لنش، وأبطأت خطواتي تحت المطر في بنزرت، وضللت الطريق في غابات إسلام آباد. نمت في فنادق برج خليفة، وفي غرف بنسيون بحمّام مشترك في ساحة المرجة بدمشق، غلبني النوم في أحراش جزر الصيادين في بحيرة المنزلة، وطار مني وأنا أتأمل من شباك الفندق في طهران أثر اكتمال القمر على قمم الجبال التي غطاها الجليد، طفت شوارع القاهرة أتأملها من شبابيك الميني باص وأتوبيسات النقل العام، جولات بلا هدف من أول الخط إلى

آخره. وتجولت حول شلالات كوريتيبا في جنوب البرازيل، أتأملها من شباك مروحية يمكن استئجارها بمائة دولار، صحت من النوم على ضجيج النوارس في بور سعيد، وأيقظني قرد بطرقه فوق زجاج شباك غرفتي في كوماسي. أكلت لحم الرأس المسلوق في أسواق الرباط، والموز المقلي في ريو دي جانيرو، والكباب اللاذع في طهران، عرفت السهلية في مدن القنال، وفتنتني ساندويتشات الكبدة في الإسكندرية. غرقت في طاجن الأخطبوط في صفاقس، واستفردت بضلع مشوي على الحطب في بوينس آيرس، شربت القهوة البرازيلي والشاي المغربي والتمتة الشامية، وأكلت من الدهن العراقي أكل مودع، قد لا توفر له الظروف مقابلة جديدة.

قابلت وجهًا لوجه نجومًا أحبهم شاركوني الوحدة والأفكار والأحلام قبل أن أضع قدمي فوق الطريق، حضرت فرح أنغام وفهد، دخلت بيت هاني شاكر، سهرت مع حميد الشاعر، تنقلت في ضيافة محمد منير من جاردن سيتي إلى الشيخ زايد. ساعدت محمد محيي في تقفيل أغنية رحل شاعرها قبل أن ينهيها، وضع أحمد عدوية ذراعه فوق كتفي يراجع معي كلمات الأغنية التي كتبتها قبل أن يدخل لتسجيلها، جالست باولو كويلو في غرفة مكتبه التي تطل على المحيط، فتح لي عمار الشريعي باب الاستوديو بجلاية البيت، تسلقت مرات كثيرة السلم الضيقة التي تقود لغرفة أحمد فؤاد نجم فوق السطوح. جلست بين يدي خيري شلبي أتلقف أسرار الصنعة بينما يغير حجر الشيشة في منزله، حضرت جلسات مع أسماء كانت تبدو كالحلم بالنسبة لي، اقتسمت الدخان والشاي واللقمة والحكايات مع تاريخ تجسد في كُتاب وشعراء وفنانين ورجال سياسة سابقين.

نجوت كثيرًا، أحلم أن أؤلف كتابًا عن النجاة في حياتي، الأطواق التي كانت تظهر من العدم والغرق على وشك أن ينهي مهمته، «ربنا يوقف لك أولاد الحلال»، «الدعوة» العجيبة التي وضع فيها أهلي كل مدخراتهم فتجلت كما يليق بدعاء الأولياء. تعطلت سيارتنا ليلاً في ظلام كراتشي بالقرب من سرب خنازير برية كان يقترب ببطء مخيف، ثم ظهرت من العدم سيارة نقل أنقذتنا قبل حفل عشاء كان على وشك أن يبدأ. تسرب البنزين وتمايلت الطائرة يمينًا ويسارًا حتى هبطت بمعجزة في مطار

مدينة لا أعرف اسمها حتى يومنا هذا، مطار لا يوجد فيه سوى غرفة مراقبة وصالة انتظار في صحراء مقبضة. دخلنا بيت دعارة بالخطأ في أحد البلاد، وخرجنا منه قبل وصول البوليس بدقة. خلصني صديق من مطاردة غرامية سخيفة أفستت حياتي بإهانة لم يكن يقصدها أخفت السخافة إلى الأبد. كان البيبي فيس في بدايات الطريق مفتاح العبور من الكمائن والمضايقات والشك في المطارات ومحطات القطار وشوارع القاهرة فجراً وكثير من الأماكن التي يُفترض ألا أتواجد بها. جربت كل ما أتاحت لي المناسبات. نجوت من علاقات عابرة بقرار من الطرف الآخر، وهو من حسن حظي، إذ كانت القرارات الحاسمة لفترة طويلة نقطة ضعفي.

أحببت نعمة الماء المثلج، شربت ماء زمزم، والماء المنهمر من شلالات جبل ستي فاطمة في مراكش، وماء الجليد الذائب في دربند، وسقاني أحدهم ماء معطرًا بـ«الماورد» في السيدة نفيسة، ترك أثرًا جعلني أعود إلى بيتي أحمل مودة عجيبة للعالم، ثم اكتشفت الديثوكس، وصرت أقطع الزنجيل والليمون مع مسامير القرنفل ليقضوا الليل في الثلجة، ثم أصحو أنهل من مشروب سحري يمنحني جرأة ما، لكنني عرفت مؤخرًا أن الشاي هو مشروبي الشخصي، طارده في كل المدن التي زرتها، وكانت الخمسينة الأفضل على الإطلاق هي التي أقتسمها في بيت العائلة مع الأب والأم وقائمة رحل أغلب سكانها، لكنهم يحضرون كلما كانت الخمسينة مضبوطة.

تمتعت بكل وسائل الانتقال التي تعرفها البشرية ما عدا الصاروخ، دخلت أبو جالوم على ظهر جمل، وسافرت إلى دمشق بالأتوبيس، كنت أعود إلى الشقة السكنية التي وفرتها لي الظروف في قلب شبرا الخيمة رابع ورا في سيارة ترامكو تجميع بلدي، وسافرت إلى دبي في الدرجة السياحية في رفقة مضيضة كانت تتفانى في تقديم ما يشعرنني بالنعيم، من درجة الإضاءة إلى درجة برودة عصير التوت الأزرق.

عندي بنتان، رقية وليلى، تتجلى فيهما نعمة عظيمة وهي نعمة أن تعرف للحياة معنى يساعذك على مغادرة الفراش صباحًا.

وعندي أصدقاء قسمتهم إلى شلتين، الأولى انضمت لها كشاب مصري نمطي يحاول أن يجرب بعيدًا عن أهله بعض ما حذروه منه ونهوه عنه

ويعتبرونه انحرافًا ما، من باب الفضول راح الواحد يتجول في تلك المناطق ويختبرها، ومهما طالت جولته كانت تنتهي مبكرًا، لا من باب أن الواحد ملاك، ولكن من باب العناية الإلهية التي تحمي المغفلين أمثالي، وهذا هو الأصل في قانونها، بينما الأصل في القانون الذي وضعه البشر أنه لا يعد المغفلين بأي حماية.

غادر الواحد كل الملاعب سابقة الذكر المنهي عنها، وكان كل ما بقي منها مجرد وقت مهشم على الطريق، ينحني الواحد ليفتش بين شظاياها عن الدروس المستفادة، بقيت الصداقة، ومرح قديم يتجدد، وإخلاص عميق يكبر بالوقت، بينما كل واحد من الشلة «يلم نفسه» ويعود لحياة طبيعية بزوجة وأولاد ومسؤوليات واضحة.

أما الشلة الثانية، فرفقتهم هي المتعة صافية، تتغذى العلاقة بيننا على الخيال وحسن التأويل والقدرة على قراءة أدق تفاصيل الحياة بمحبة وهدوء حكيم، شلة لا تفتش عن السعادة بعيدًا، فالسعادة موجودة في كل ما يقع بين أيديهم، قضينا الليلة كلها ذات مرة تتأمل كل ما تحمله أربعة أرغفة بلدي ساخنة خارجة للتو من المخبز، اللون والشكل والطعم والحكمة واختزال العشرة في «العيش والملح» واختزال الرزق في مفردة «العيش»، كان عشاءً فآخرًا بنهايته ارتقى الواحد درجة جديدة في سلم تجربة الحياة.

مررت أمام بيت فيروز أكثر من مرة، ولمست بيدي قالب الطوب المتبقي من أطلال بيت أم كلثوم بعد هدمه، والذي احتفظت به الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في مكتبتها. أمتلك سيارة وموبايل ولاب توب وغرفة مستقلة بشرفة واسعة وتلفزيونًا وكاسيت وساعات حديثة، وصنعت لنفسني وصفة لتحسين المزاج لا تتطلب تعبًا أو تكلفة ولا مجال فيها للمفاجآت أو الإحباط، براد الشاي ومزروعات الشرفة ومحاولة اللحاق ببدايات اليوم في شوارع القاهرة الجانبية، متابعة الأحباب والاطمئنان أنهم بخير، وتحصيل بعض المعرفة والموسيقى وتجميع مواد أرشيفية تجدد الدهشة، خففت حمولة الأحلام، الأحلام التي يمكن تحقيقها مزعجة، لأنها تتحول إلى مهام لا بد من تنفيذها حتى لا يطارذك شعور الفشل، الأحلام الحقيقية هي التي لا يوجد سبب أو سبيل منطقي أو أمانة لتحقيق، وهي التي أحملها معي وأجدها كل يوم.

استقرت أيامي في الشكل الذي أتمناه، حياة الكاتب، الكتابة مغامرة،
ومن حسن حظي أنها لم تتوقف يومًا.

ذوب الوقت فجوة بيني وبين متع يبدو أنها كانت مؤجلة. وقعت كثيرًا في
غرام الأسماك وأطباق السمين والمشى بلا هدف والإنصات لتخاريف
الأطفال. اخترت تشجيع فريق يقدم إثارة تشبه حياتي، متعة لا تقترب من
المتوقع أو المألوف. أحتفظ منذ بدأت العمل بمسودات سجلت فيها
أسماء مشروعات أحلم بتنفيذها، أقضي الليالي حاليًا أقلب فيها وأهنيئ
الشباب القديم على ما أنجزه. تعلمت من كل أخطائي السابقة درسًا
واحدًا، لا تشغل بنفسك زيادة عن اللزوم، وتعالى على نفسك قليلًا،
تعالى.. وهتجيبك.

زارني الأحباب الذين رافقتهم حتى بوابات السفر، يعودون دائمًا بما يترك
في القلب أملًا، ما زلت في انتظار البعض ممن انتقلوا ولم يطمئنوني
عليهم بعد، أراسلهم كل أسبوع بالفاتحة والصمدية والدعاء، وأرجو أن
يكون المانع خيرًا.

أعمل وأجتهد لأنها أوامر إلهية، عدلت خطتي واستنسخت خطة كل
صناعي مصري، أعمل حتى أوفر ما يضمن لي أن أغلق موبايلي وأنعزل
وأراقب العالم بلا أي تأنيب للضمير، أستقر أراقب - كما كتبت في سيناريو
أحد أفلامي - أسراب القريدس وهي تحمي بيضها من هجمات
السلطعون، في هذه النقطة يستقر معنى أفخم للحياة. أومن بنعمة الستر
وأراها أفضل صيغة للحياة، وهو أمر لا علاقة له بالأموال التي في حوزتك،
هو سر عجيب لا علاقة له بالأرقام، قد ترى السعي للستر فقط ضد
الطموح، السعي للستر يقبع في طريق آخر لا علاقة له بالإنجازات، له
علاقة بقدرتك على الاستثمار في الإنسانية.

لا أشعر بالأسى تجاه الفرص التي أهدرتها، ويكفل الامتعاظ نظرتي إلى
الفرص التي أهدرتني، كنت أدخر لها أفضل مما حصلته بطريقتها...
خسارة.

لا أعترف بسوء الحظ، وأرى أن كل ما عشته هو الأمثل بالنسبة لقدراتي،
وأقبل وجهة نظر المقربين فيّ بأنني زاهد وعمدي باعتبارها قصة نجاح،
وأود بعد وفاتي أن أتبرع بجسمي للأبحاث التي تفسر الشعور بالامتنان.

هل حققت ما أحلم به؟

ربما.

لكن الأكيد أنني حققت ما لم أحلم به.

هل أخاف من الموت؟

الحقيقة أخاف منه لسبب واحد عبّر عنه محمود درويش في سطور قليلة
بالنيابة عني:

وأعشق عمري

لأنني إذا مت

أخجل من دمع أمي.

«الإقامة الجبرية في هذا العنبر المقبض ستقتلني ببطء، أعتقد أنكم تفسدون ما أنجزتموه».

ضحك الدكتور وقال: وصلت إلى المستشفى وقلبك يعمل بكفاءة أقل من أربعين في المائة، لقد قطعت خطوات على طريق يندر أن يعود واحد من سالكيه، كنا نفكر وقت وصولك في أسباب الجلطة، الآن الكل مشغول في محاولة تفسير النجاة، طول بالك، عندما تستقر حالتك سننقلك من الرعاية إلى غرفة بشباك يطل على الشارع.

فهم الدكتور مشكلتي، كانت الجدران المصمتة تطبق على نفسي، فتشتت عن نافذة في الحَمَّام تسمح لي ولو باستنشاق هواء المنور، كان الحَمَّام بلا منفذ، بل كان الطابق كله محاطاً بنوافذ مغلقة بإحكام لا تطل على أي شيء.

قال الدكتور حباية مهدئة قد تخفف الحبسة وانقطاع النيكوتين، لكنها لم تمنحني سوى دقائق ثقلت فيها جفوني ثم سيطر الأرق من جديد.

زارني صديق، طلبت منه أن يمنحني جهاز التدخين الإلكتروني الذي يحمله من أجل نفسين، أربكه طلبتي، قلت له رائحة الديتول والبنج والأدوية التي تسيطر على الغرفة ستشوش على الجريمة، كاد الارتباك يسحب له سريراً معي في الغرفة ليرقد فيه.

لم يدفعني أصدقاء السوء باتجاه التدخين، كنت أنا صديق السوء في رواية المحيطين بي، طاردتني رغبة الاستكشاف، سرقت سيجارتي الأولى من علبة الدخان الأجنبي التي كان يحملها العم، ثم سرقت من دولابه علبة كاملة خبأتها، كنت أسحب سيجارة كل يومين أو ثلاثة، أتمرن على تفادي الكحة والإمساك بسر الموضوع، عرفته بعد وقت قليل، فتوالت السرقات حتى اشتريت أول علبة مارلبورو أحمر في أول يوم لي في القاهرة طالباً جامعياً.

رسم التدخين الشخصية والطريقة، وعلم الواحد كيف يحافظ على مسافات مع الآخرين، قصة حب انتهت في الرعاية المركزة، أو من أن

التحذيرات الشائعة تخص أشخاصًا غيري وبؤسفني سوء حظهم، لكن شخصًا من نوعيتي المخلصة من المستحيل أن يتعرض للخيانة، لم أتخلَّ عنها يومًا، سيجارة للفرح، للأحزان، التوتر، التفكير العميق، الدقائق الأولى في ماتش كرة مهم، والأخيرة أيضًا، الحماس والحب والشعور بأنك في ورطة، القلق، غنوة حلوة تبدأ فجأة، الانتظار، الشعور بالملل أو الإثارة، واحدة لتنظيم دقات الهلع، وأخرى للاحتفال بالطمأنينة.

أكلة حلوة، حفلات الجنس الذهني الجماعي مع كنكة القهوة والأغنيات القديمة، استنشاق رائحة التبغ قبل الإشعال، أحمد زكي وعادل إمام، سحر العلب المعدنية القديمة في سوق الجمعة، والعلب العريضة الملونة في إعلانات مجلات السبعينيات، الغرام بأشكال «الطفايات»، جاذبية المُدخّانات العجيبة التي تفتح حوارات أجمل ما فيها الصمت. لحقت بآخر رحلة طيران كان التدخين فيها مسموحًا، دخنت في الطائرة التي كانت متجهة إلى الأرجنتين ومنعوني في رحلة العودة، البرد، صباحات الشتاء، ولياليه طبعًا، القيادة بعد منتصف الليل في شوارع خالية وإليسا تهتف عبر السماعات: «أنا مين عندي بعدك»، التدخين بين عربات القطار، وفوق مركب متأملًا موسيقى البحر، أو متوحدًا مع النجوم في سماء سانت كاترين، السمعة التي طاردتني طويلًا كـ«حرامي ولاعات». معجزة تكررت لمرة واحدة وأصبحت ذكرى خالدة عندما سمح لي أبي أن أدخن معه قبل أن يقلع بدون مقدمات، قصص الحب العابرة في غرف التدخين في المطارات التي تبدأ بالبحث عن ولاعة، تنمية أول سيجارة بعد يوم صيام، السحب المجاني من العلبة أثناء الكتابة، أو القراءة، أو مشاهدة ماسبيرو زمان، زيارة العيادات لإنقاذ العلاقة التي كاد أن يفسدها الضغط العالي أو السعال أو ضيق التنفس، القمصان التي أفسدتها الزهرات المشتعلة.

زرعت عفريتًا بداخلك، تقدم له قربانًا كل قليل ليهدأ، يشبهون الأمر بقصة شخص ارتدى حذاء ضيقًا، سار به لفترة فأرهق قدميه، خلعه، فأحس بقدر كبير من الراحة والاسترخاء، أعجبه الشعور فأصبح كلما اشتاق إليه يرتدي الحذاء الضيق المهلك ويسير به حتى يؤلمه فيخلعه ليشعر بالنعيم، قصة حب بطلها مغفل بثلاث رئات.

على الواحد الآن أن يستوعب الأمر، يقول الطبيب: الانتكاسة قاتلة. لكن فات الأوان، حسم صديقي الأمر، تركني وذهب ليفتح حوارًا يعطل

أبلة فاتن.

انفردت بجهاز التدخين، جعلني النفس الأول أسترخي في الفراش، وكان الثاني مفتاح السقوط في النوم. أيقظني صديقي بخفة هامسًا: مش عايز حاجة قبل ما أمشي يا أبو رقية؟ قلت: ما تقوليش يا أبو رقية، قل لي يا أبو دعامة.

٣

دخلت أبلة فاتن تسجل القياسات وتناولني جرعة الأدوية حسب الجدول، أنهت المجموعة بحباية قالت إنها ستجعلني أنام بهدوء.

تأملتها وهي تعدل وضع الوسائد والغطاء فتسلل إلى القلب خليط من الشعور بالذنب وتأنيب الضمير، لو مر أحد قيادات المستشفى واكتشف مريضًا يدخل في عنبر الرعاية المركزة، فستكون نهاية أبلة فاتن المهنية، قلت لنفسي: هي برضو غلطانة، لم تحسن الرقابة على مرضاها، وصديقي أيضًا أحرق إذ استجاب لنزواتي، أما أنا فمني لله، أنا وأول شخص يدخل سيجارة على سطح الكوكب، فيمَ كان يفكر هذا الأحرق؟ ولماذا لم يجعل اكتشافه سرًّا؟ وما الذي يقود إنسانًا للتفكير في أن يخرج دخانًا من أنفه وفمه؟ قلت ربما كان هذا الشخص مغرمًا بفتاة تهوى التنانين وتخرج إلى الغابة لتراقبها وهي ترسم دوائر بالنيران والدخان الخارجة من جوفها، ففكر أن يقلدها ليكسب قلب فتاته، جمع أوراقًا وحرقها وبدأ يتمرن على استنشاق الأدخنة وبثها في الهواء على شكل قلوب وأرانب، مرة تلو الأخرى لاحظ أن مزاجه أصبح رائعًا حتى إنه نسي فتاته، وانشغل بجمع المزيد من هذه الأوراق وحرقها، حكى لصديق فأبلغ صديقًا آخر، وانتشر الأمر حتى وصلت الأخبار إلى الخواجة فيليب موريس.

شككت في نفسي، هل أنا في حالة هذيان أم أنني وقعت في قبضة سؤال عميق من النوعية التي تفسد حياة أهل الكتابة؟ فيمَ كان يفكر أول شخص ارتدى نظارة شمسية؟ وأول شخص طهى الأرز؟ ما الذي كان يختبره الشخص الذي اكتشف أن الأجسام الصلبة التي تسقط من مؤخرة الدجاج يمكن أكلها مسلوقة؟ هل كان أول شخص شرب الشاي يفكر في الانتحار واكتشف أن الأعشاب التي اعتقد أنها سامة تحسن نظرة الواحد للأمور؟ هل بدأ المشوار بطهي النجيلة حتى وصل شخص ما لطهي الملوخية؟ ما الذي كان يفكر فيه أول تاجر قرر أن يبيع كل بضاعته بأقل من سعرها،

وأطلق على العملية اسم أوكازيون؟ كيف أقنع أحدهم شخصًا ما بتجربة دواء جديد اخترعه يتناوله الإنسان عبر المؤخرة؟ كيف كان حجم الفراغ العاطفي الذي وصل بأحدهم لاختراع الكلمات المتقاطعة؟ خُلق الإنسان ليعيش على كوكب الأرض بالعرض، ما الذي فكر فيه شخص جعل الإنسان يعيش بالطول، بنى طابقًا ثانيًا ثم ثالثًا ثم انتشرت العمارات؟ كيف كانت طفولة شخص استهلك عمره في الوصول لإمكانية حساب مساحة الدائرة بالقانون ط نق ٢؟ كيف ظهرت لشخص ما فكرة أن يجمع أخبار الناس ويبيعهها لناس آخرين ويسميتها جورنال؟

يمكن اعتبار البشرية مدينة لأشخاص صنعوا تفاصيل الحياة اليومية، لكنها مدينة بشكل أكبر للأوائل الحكماء الذين لاحظوا تجربة العيش جيدًا وفهموا شرور الملل والتكرار وما بهما من مشاعر قد تقود الواحد للعدمية، فاخترعوا نظامًا يجعل استمرار الحياة ذا طعم ومعنى، نظامًا يساعد الناس في العثور بين الملل على مناسبة للبهجة والأمل، فكانت احتفالات السبوع وعيد الميلاد وبداية السنة وأربعين المتوقى والنقطة والندر وقراءة الفاتحة والمولد والشهادة الكبيرة، تفاصيل لخص أثرها الشاعر أحمد رامى عندما أشار للنقطة المبهجة في ليلة العيد كونها «جددتي الأمل فينا».

عظمة هذا النوع أنه فعلها لوجه الإنسانية، لم ينتظر تخليدًا أو مكافأة، أعجبتني حكمتهم لكنني فشلت في تفسير ما كان يفتش عنه أول اثنين تبادل القبلات، هل كان الشاب هو صاحب المبادرة؟ هل كان مفتونًا بحبيبته وأراد أن يشربها؟ هل كانت ثرثارة ولم يعرف طريقًا لسد هذا الهويس سوى شفثيه في عملية انتحارية؟ أم أن البداية كانت عند فتاة حاولت أن تلتهم الكلمات المعسولة التي تفيض سحرًا وهي تخرج طازجة من فم حبيبها؟ أم أن حباية أبله فاتن العجيبة هي التي قادتني للهوة التي سقطت فيها؟

ع

استيقظت أفتش عن نافذة تسمح لي أن أعرف إن كان الوقت ليلاً أم نهارًا، أزعجني عدم وجودها وأزعجني أكثر أنني كنت أعرف ذلك، كان جسمي مفككًا، اعتدلت أفتش عن زجاجة الماء فوجدتها فارغة، أزحت الستارة قليلًا لأطلب زجاجة.

كانت أبله فاتن تجلس على مكتبها الصغير في مقدمة الغرفة، في يدها كوب شاي وقطعة مخبوزات، رأيتها تقلب في الموبايل وفي أذنها سماعة واحدة، ويصل من بعيد ضجيج أغنية فشلت في تمييزها، كانت قد تخلت عن حجابها قليلاً، اكتفت بالسماح للطرحه أن تسقط فوق كتفها، حاولت أن أتخيلها في بيتها، كنت متأكدًا أن جلستها من النوع الذي يفيض مودة وشكوى لا تخلو من السخرية والشاي والمقرمشات وفنون المواساة والطبوبة واختراع الحلول وفك شفرة وصفات الطبخ، تفاديت أن أفسد عليها لحظات الراحة والتقاط الأنفاس بطلب زجاجة ماء، خصوصًا أنني كنت على يقين من أنها قد خلعت حذاءها وتجلس حافية.

أمي تطارد الجميع باتصالاتها، ابنها الوحيد الذي يهاتفها كل مساء مختفياً منذ يومين، هاتفه مغلق، زوجته لا ترد، وشقيقته تدعي عدم المعرفة، يخافون عليها وهي على بعد ٧٠٠ كيلو أن تتعرض لصدمة مشمولة بقلّة الحيلة تهلك أعصابها، اتفقت الزوجة والأخت على تلفيق سبب يدعو لقلق يمكن السيطرة عليه، قالوا لها: عمر عمل الزايدة وما كناش عايزينك تقلقي.

لم تطرق السذاجة باب أمي يوماً، لم تسمح لها الظروف، الفتاة الصعيدية التي سافرت في الستينيات إلى العاصمة بمفردها لترجع بليسانس حقوق من جامعة عين شمس، ثم استقرت في إحدى قرى السودان مع زوجها الذي سافر ليعلم أطفال القرية، رجعت لتبدأ رحلة شاقة، ودعت والدها وأمها وشقيقته المقربة ثم شقيقها الأكبر ثم شقيقها الأصغر آخر العنقود، أزال المرارة وتعيش بثلاثة أنواع من أدوية الضغط، وتنقلت مع الأب بين مدن مصر حسب مقتضيات عمله من الصعيد إلى الفلاحين مروراً بالعاصمة، وفجأة اتخذت قراراً أن تعود إلى سوهاج بمفردها لتجهز للعائلة بيتها بعد أن اقتربت سن المعاش وحانت العودة، وقفت بين الصناعاتية كمهندس ديكور ومشرف ومنتج فني، وأعدت لنا بيتاً أجمل من الذي بدأنا فيه حياتنا، وحققت حلمها القديم بامتلاك مطبخ محترم يليق بالعائلة، بعد أن قررت أنني لن أحتاج للغرفة التي قضيت فيها طفولتي ومراهقتي، الغرفة التي اكتشفت كم كانت كبيرة عندما رأيت الدواليب والثلاجة والبوتاجاز والفرن ومائدة الطعام مرصوفة فيها رصة ملهمة.

أمي هي مراقب الجودة في حياتي.

قلت لها إن ملاحظاتها على ما أكتبه ملاحظات محترفين، غابت ورجعت من دولاب ملابسها بصورة قديمة لها بملابس المدرسة في رفقة فتاة تحمل كاميرا، وأمامهما شخص يبدو أنه مهم، قالت: حوار مع مدير مستشفى المدينة لمجلة المدرسة حصلت به على جائزة.

شجعتني أمي على التقدم في ملاعب الكتابة مدفوعة بحلمها القديم، كانت تحلم بالصحافة، واكتفى جدي بمغامرة أن يسمح لابنته بالسفر إلى

القاهرة بمفردها لتدرس الحقوق، لكن غربة ووسط صحفي لا أحد يعلم أسرارها، اعتبر الجد أن الأمر يتجاوز المغامرة إلى المخاطرة.

مفاجآت أمي لا تتوقف، عرفت كثيرًا أنها تحب فائزة أحمد، كان هذا في سياق مفاجأة أكبر، إذ اكتشفت أنها تكتب مذكراتها، وضعت أمامي أكثر من ٢٠٠ صفحة مكتوبة بالقلم الرصاص، سجلت فيها يوميات فتاة صعيدية مغتربة منتصف الستينيات، أتقل بين الصفحات وأتعرّف على نسخة من أمي لم تأتِ فرصة لمعرفة عن قرب. ورثت عنها حساسية الشعور بالاغتراب وحسها النقدي، لكنها متفوقة فيما يتعلق بالنقد، تؤمن دائمًا بأن «فيه أحسن»، تلفت نظرك إلى ما فاتك، وتترك لك وجهة نظرها على طبق من حرية التصرف. أحب فيها قدرتها على الفصل بين سلطة الأمومة وحرية الفرد، لا تقدم آراء انطباعية، تجتهد في المذاكرة وتحصيل المعرفة وتقديم وجهة نظر بلا ثغرات، تمامًا كما يليق بسيدة غادرت قطار الوظيفة على درجة وكيل وزارة العدل.

سحبته من يدها كثيرًا لتتم خطوات عاطفية اتخذتها بمفردي، أدفع بها في رحاب أسرة جديدة كل فترة لتتعرف عليها، تبدي ملاحظاتها وتترك لي حرية القرار، كل مرة كنت أكتشف أنها محقة، وأنها توقفت بخبرة عند تفصيلا قد تفسد حياتي مستقبلًا، وعندما أراجع أترك لها مهمة إنهاء الموضوع بطريقتها، تقول لي إحدى قريباتي: ما تورطهاش، بطل ندالة. أقول: الانسحاب سهل ولكنني دخلت البيت من باب، ولا شيء يحفظ كرامة الجميع قدر احترام خطوات الخروج من الباب نفسه.

سألت أمي:

- الزايدة؟ وأين هو الآن؟

قالت الزوجة:

- في الإفافة.

- في الإفافة له؟ هو مش عملها ليزر؟

- لأ، فتح.

- غريبة دي! هو لسه حد بيعمل الزايدة جراحة؟

- ما جهاز الليزر كان عطلان.

- قوم يقعد يومين في الإفاقة.

- علشان بس نتطمئن عليه.

- تتطمئنا من إيه؟

- طب هنكلم حضرتك تاني.

سألتي زوجتي عما يمكن أن نخبرها به إذا طال الوضع. قلت: لا أعرف، وأغلب الظن أننا سنجدها أمامنا قبل أن نصل إلى إجابة لهذا السؤال.

قالت الزوجة: المهم ألا تقلق، ستخرج سالمًا من هذه الأزمة إن شاء الله. قلت: صدقيني لا أحلم بالخرج من هذه الأزمة، أنا أحلم حاليًا أن أخرج من هذا العنبر. قالت: مش عارفة عايز تخرج تروح فين يعني!

٢

كان جدي يمتلك مستودعًا للبترول يغذي القرية الأم والقرى المجاورة، أنتظر بشغف ساعة العصاري التي يصطحبني فيها معه إلى المستودع ليتابع سير العمل، ألهو إلى جوار فناطيس السولار والبنزين، أعتقد أنني الوحيد في جيلي الذي تحرك رائحة محطات البنزين مشاعره إلى اليوم، أراقب الجد من بعيد يجلس على أطراف المستودع يصب الشاي من ترموس فضي في خمسينة شفافة، ويدخن سيجارته الكليوباترا في صحبة ملف يحتوي غالبًا على أعداد جريدة «الأهالي» ومجلة «روز اليوسف» أو «صباح الخير» و«المساء»، يتمم على العمال، ويزور جيران المستودع الفلاحين، يعود مريضًا، يبارك وصول مولود، يشد أزر أسرة فقدت أحد أفرادها، تعرف البلدة مكانة جيران المستودع عند الجد، كان يجلس في المندرة ذات يوم قبل العصر عندما مر به أبو شوال مجذوب القرية قائلاً: خليك إنت قاعد كده والنار هوف هوف والعة. اندهش الجد وانزعج مما يقوله أبو شوال لكنه لم يهتم، بعد ساعة لمح الجد أحدهم يهرول من بعيد في اتجاه المندرة وهو يصيح، عندما اقترب سمعه يصرخ: المستودع بيولع! جرى جدي لا لينقذ ماله، لكن خوفًا على بيوت الفلاحين الخشبية التي تمتلئ بالقش والذرة، وقف يزيح معهم كل ما هو قابل للاشتعال وعلى لسانه كلمة واحدة: لا إله إلا الله الحي القيوم. بدأ يرددتها فتلقفتها الجموع ورددتها خلفه حتى انطفأت النار.

سألت الجد مرة وكان يحدثني عن حساب الله لنا، قلت: سيحاسبنا الله،

ولكن هل سيسمح لنا أن نحاسبه؟ تلقف السؤال بابتسامة قائلاً: وعمّ تريد أن تحاسبه؟ قلت: الحروب، الفقر، صديقي سالم الذي ماتت أمه، الوجد، المرض... قال: هو لم يحاسبك على النعم التي منحها لك، كانت كلها مجانية، عليك أن تسدد فواتيرك أولاً.

تذكرت حوارنا منذ شهور، وسألت نفسي إن كنت سددت فاتورة نعمة واحدة، الكتابة مثلاً: نعمة واحدة أدخلتني بيوتاً وقعت في غرامها، أجلسنتني مع أكابر أصلحوا علل الوجدان، جعلتني ضيقاً في غرف صغيرة في مدن بعيدة، تحت وسادة أحدهم قريباً من أنفاسه وهو مطمئن، عرفتني على نفسي، صاحبتي على علة الحنين، خفت تلميم عذاب الضمير، ساعدتني في اكتشاف عظمة ما كنت أظنه عادياً في حياتي، لم تسمح للعزلة أن تؤذيني، قدمت لي أفضل ما فيها وابتلعت سمومها، دربتني على الرضا، أعطتني فكرة عن الطريقة التي يجب أن أصنع لنفسي بها معايير للقبول والرفض، منحتني مهارة أن أجد مبرراً وتفسيرات ومنطقاً للأحداث، علمتني كيف أصنع من حماقاتي فطيرة تفاح.

ربما كانت آثارها الجانبية مهلكة، لكن الكتابة بطبيعتها تعالج كل ما تسببت فيه.

أتمنى أن أخرج من العنبر، وأستقر في مستودع مصر للبتروال الذي كان يمتلكه عمر محمد علي، على أطراف المدمر.

٣

ألقيت النظر عبر زجاج غرفة الرعاية المركزة مرتين في حياتي، كانت كل منهما المرة الأخيرة التي أرى فيها وجه من يرقد بالداخل، خالي وحمايا، كان رحيل كل واحد منهما صدعاً في حياة عائلة، لم تُشفَ أي منهما حتى يومنا هذا.

تذكرت المشهدين بينما أجلس فوق كرسي متحرك بالقرب من لافتة الرعاية المركزة، في انتظار أن يدفعني أحدهم باتجاه غرفة فحص الإيكو، سمعت صوت عبد الحليم قادمًا من نقطة بعيدة في صدري يغني: «شوف بقينا فين شوف.. شوف بقينا فين يا قلبي».

كان الطبيب هناك ينتظرني بابتسامة لم تشرح لِمَ أنا هنا.

بينما يقوم بإجراءاته سألني: لو رجع بيك الزمن تشتغل كاتب ولا هتغير؟

تعطلت في الإجابة عن السؤال، فشرح أنه يفكر جديدًا في اعتزال الطب وتغيير المهنة، فأصبح يسأل كل من يقابله إن كان يمتلك جرأة اتخاذ قرار من هذه النوعية.

قلت له إذا عاد الزمن إلى الخلف فلن أغير مهنتي لكن ربما أغير الخطة، لن أجعل الكتابة مشروعني الرئيسي، سيصبح مشروعني أن «أتجوز وأقعد في البيت».

ضحك الطبيب. قلت له: هو مشروع لا يتعارض مع حلم الكتابة، بالعكس يمكن اعتباره أفضل مؤسس له. عرفت مؤخرًا أن ما أعيشه حاليًا هو الاستقرار الذي أفتش عنه طوال الوقت، كنت سأتزوج في العشرينيات وأنجب خمسة أطفال وربما أكثر. لا يوجد معنى لتجربة الحياة يضج بالمعنى والحياة مثل الجري خلف بني آدمين صغار، إطعامهم وحمايتهم، تعليمهم وإمتاعهم، كشف الأسرار لهم، مراقبة الدهشة وأنت تجرب فيهم ألعاب الحواة، السفر معهم، أن تكون مصدرًا لضحكاتهم، مستقبلًا لمحبة لم يهذبها النضج، سعادة ربما تكون تكلفتها شاقة، الحياة عمومًا كلها مشقة، ستكون المشقة هنا مشمولة بمتعة أكبر، دفء صافي، مخاطرة أقل من المتوسط. حتى نهاية الرحلة بالصيغة التي قال عنها نجيب محفوظ «التفرق السعيد»، هي صيغة ترضيني، يتعرف من فارقوا على قيمة كل ما اختبروه، ويبدأون في رد المودة بالطريقة نفسها لأطفال مسنة تطارد الذاكرة بالأوميجا ثري وحل الكلمات المتقاطعة، وحكي الوقائع نفسها مئات المرات.

أنهى الطبيب الفحص ويبدو أنه لم يكن يتابع وصلة الهذيان التي قدمتها، قال: الحمد لله الحالة مستقرة، لا يوجد تحسن كبير، لكننا كنا نتوقع الأسوأ. شعر أن كلماته محبطة، فقال: ليلة كمان وبكرة إن شاء الله تسبب الرعاية.

ع

رجعت إلى مكاني شبه مهزوم، كنت أمّني نفسي بمغادرة الرعاية، فلتكن ليلة أخرى، مش مهم.

لاحظت أبله فائن حالي وحاولت أن تلتطف الأجواء، فسألتنني إن كنت أحب قليلًا من الشاي، سألتها إن كان ممكنًا أن أعزمك أنا المرة دي على

حسابي، ضحكت قائلة: المشروبات هنا ببلاش.

أسعدتني الملاحظة، هذا هو حلمي القديم، مشروبات مجانية في أخوية الطبقة المتوسطة.

عندما فاتحت صديقًا لي في اسم المشروع قال لي: خد بالك كلمة أخوية تعطي انطباعًا أنه مشروع قبطني أو مخصص للأقباط. قلت له: الأخوية من عمر الإنسانية وهي قبل الأديان، واستخدام فئة لها لا ينفي عنها حقيقة مدلولها، الموضوع نسبي والناس الطبيعية تتفهم، سألني: وكيف ستميز زبائنك؟ قلت: زبون أخوية الطبقة المتوسطة الخجل هو أيقونته، مشكلته أنه لا يجيد فن إخفائها عن الآخرين، لذا فالخجل هو حائط بطولاته وهو نقطة ضعفه أيضًا، ومن الخجل نبتت بقية فروع الكاركتير.

هو صبور لأنه يخجل كما قال صلاح جاهين من أن «يلف بجرحه يشحت»، ومتعلم لأنه يخجل من أن يبدو كشخص جاهل، وخجله من هيئة الفاشل يجعله كادحًا ومثابرًا، وملتزم لأنه يخجل من أن «يجيب لأهله الشتيمة»، ومخلص لأنه يخجل من أن يبدو كشخص لا يصون العيش والملح، وصادق لأن خجل عينيه يفضحه، ومبدع لأن خجله يجعله يفتش عن طريقة يخبي فيها فيض مشاعره، ودؤوب لأن هشاشة الاستسلام تجعله في نص هدومه، وناقذ لأنه يخجل من أن يبدو أمام الناس كشخص مغفل إلى درجة تجعله يبتلع العطب ولا يقف في زوره، ويحافظ على العادات والتقاليد لخجله من فكرة أن يخون ميراث الأهل، ومتساهل لخجله من أن يظهر كشخص ميت على الدنيا، لكنه أيضًا حذر لأنه يخجل من أن يكون زبونًا لقطعة.

شخص زُرع فيه الخجل يومًا بيوم، كان مطالبًا منذ طفولته بأن «حس على دمك، واختشي شوية، وخلي عندك شوية دم، ومش مكسوف من نفسك، وعيب، وما يصحش»، كبر وهو يتفادى كل ما يؤدي إلى هذه النقطة.

حمولة الخجل الثقيلة تجعله مستحَقًّا لمن يقول له ولا يهملك نحن في المركب نفسها.

أنا ابن البيت نفسه الذي كبرت فيه، بيت يفتش عن البهجة ولو بزرع النعناع في فوارغ علب البويه وصفائح الجبن البراميلي، مرآة في مدخل

الشقة، وربما قطة، مفرش تريكو لجهاز التلفزيون المحاط دائماً بتنبيه «ارجع ما تلزقش فيه»، شيش خشب شنكلت ضلفه ساعة العصاري، وكراسي بلكونة واحد منها رجله مكسورة، وأم تقدس غرفة الصالون، وتصنع كسوة لمقاعدده مع ستائر تتناسب قيمتها طردياً مع ثقل وزنها وحجم الفيونكات، سخان المصانع الحربية، وعزف الغسالة الإيديال المنتظم الذي يوقظك صباح كل يوم جمعة، لوحات الجدران واحدة من ثلاث: الطفل الباكي، أو القطط وكرة التريكو، أو الراقصة والطبال على ضفاف النيل، ماكينة خياطة سنجر اختبأت في دواستها طفلاً، مروحة السقف التي تخسر دائماً مفاوضاتك مع الأم حول سرعة تشغيلها. من المؤكد أنك مررت بالكنبة الأسيوطي، والمرتبة الإسفنج لزوم المفاجآت، وورق الحائط، وتغيير ستارتر اللص النيون، والدولاب الإيديال ذي الضلفة الواحدة، والتلصص عبر سلك النملية الخشب، وفرش سجادة الصلاة ذات المربعين واحد للحرم وواحد للمسجد النبوي، وشنطة العدة التي كونها الأب من مخلفات الصناعات، وألبوم فوتوغرافيا كبير، واحد على الأقل، غالباً الذي يحتوي على صور فرح عمك، وشيء واحد على الأقل يصدر موسيقى عند تشغيله، علبة البونبوني العروسة مثلاً، طبق الفاكهة البلاستيك، والمكرمية، وسبت عدة التلفون، وصندوق خشبي صغير معلق اسمه الأجزاء، أهم محتوياته الترمومتر والميكروم والتيرمايسين، مساحات التخزين العجيبة تحت الأسرّة، التي تعرف الأم محتوياتها بدقة ليست غريبة على كائن يلجأ إليه الجميع للبحث عن أي شيء مفقود في الشقة، ويندر أن ترده خالي الوفاض، للأب أو الجدة مقعد ثابت لا يجرؤ أحد من بقية أفراد العائلة على أن يشغله، المطبخ الذي تخرج منه الأعاجيب والذي أدهشك عندما كبرت: كيف اتسعت مساحته الضيقة لوقفه كل أفراد العائلة على هامش تحمير البطاطس.

أعرف أنك في وضع جيد يحسدك عليه كثيرون، لكنك لم تحقق أحلامك بدقة كما رسمتها، وأن أحلامك الكبيرة مؤجلة بسبب الظروف، وأنت تواجه صعوبة في التعامل مع المحسوبة، وفي العثور على تذكرتين في حفل عمر خيرت أو أنغام، وفي اتخاذ قرار زيارة طبيب نفسي، والعثور على عمل إضافي يحسن الوضع قليلاً، ومجاراة التغييرات الاجتماعية، وأنت تلوم أهلك على أنهم ربوك جيداً، وتشك إن كنت على صواب عندما

رفضت فرصة العمل خارج البلاد في وقت مبكر، وأنت لا تحب التورط في المقارنات، والمنافسة والخناق على حيز مكان لصف سيارتك أمام العمارة، وأنت تعيد ترتيب أولوياتك كل يوم، ولا تعيد ترتيب ما ألزمت به نفسك تجاه أطفالك أو أهلك، تؤجل تغيير السيارة، وتركيب تكييف جديد في غرفة الصالون، وشراء إيرفراير، وتبييض أسنانك، وشراء لاب توب جديد، وموبايل وشاشة سمارت بعرض حائط غرفة المعيشة، تخوض حوارات جنون تكلفة المعيشة بحماس لكنك تفقده سريعًا، وتطمئن نفسك والمحيطين بالحمد على الستر والنعمة وأنا أحسن من غيرنا.

أحلم أن يكون المقهى استراحة تقدم لروادها الطمأنينة، تبدد طاقاتهم السلبية التي تتراكم بفعل الأحداث والبشر، وأن أمسك بطرف سجادة فخمة تتآكل بفعل الظروف لأنقذ منها ما يمكن إنقاذه.

قطع أفكاري وصول أبله فاتن بالشاي، سألتها: فاضية خمس دقائق آخذ رأيك في مشروع؟ ألقت نظرة عبر الستارة ثم سألتني: مشروع إيه؟ سألتها: لو قلت لك فيه مشروع اسمه أخوية الطبقة المتوسطة، تفتكري هيكون مشروع إيه؟ فكرت قليلًا ثم قالت: منتجات يدوية معمولة في البيوت. ضحكت، فسألتني: صح؟ قلت لها: هو كده بالضبط.

فتشت عن أبله فاتن لأودعها قبل مغادرة الرعاية المركزة، أحبطني أنها أنهت ورديتها وانصرفت، الجميع هنا «شايغ شغله» بصرامة، لكن أبله فاتن كانت الوحيدة التي لم يفقدها هذا الالتزام ابتسامتها، مستعينة بالمخبوزات وخمسينه الشاي كانت تنثر المودة بين أسرة ينام عليها أشخاص بين الحياة والموت.

وصلت إلى غرفة في طابق علوي، بنافذة تطل على فناء مستشفى آخر وشارع خلفي، شمس تغيب، ولسعة برد قادمة من شباك مفتوح، وشخص يغسل سيارته بينما يتصاعد من سماعاتها صوت الست تغني «قربك نعيم الروح والعين.. ونظرتك سحر وإلهام».

بدا لي المشهد وكأنه السحر الذي يطل من أفلام محمد خان.

طلبت منهم أن يتركوا الشباك مفتوحًا، كان نشفان الريق مسيطرًا، طلبت أن يأمر لي أحدهم بقليل من العصير المثلج، نمت قبل أن يصل، أرهقتني مقاومة «طبقة النَّفس» في الرعاية المركزة، نمت كثيرًا، واستيقظت فجرًا، كانت زوجتي تنام على كنبه صغيرة في أحد أركان الغرفة، ولا أحد غيرنا.

كان الإرهاق يغطي ملامح وجهها، بذلت مجهودًا عظيمًا لتبدو متماسكة طيلة الأيام السابقة، فتنت لي شقيقتي، حكمت لي أنها انهارت وهي تحضر لي بعض ما يلزمني من البيت، قالت: أول مرة أشوفها بتبكي كده.

رأيت دموع عاليًا المربكة ثلاث مرات.

يوم وفاة بطل مسلسل «فريندز» ماثيو بيري، قالت لي الخبر عادي ثم خانتها الدموع وهي تحكي عن معاناته مع الشهرة ومحاولات التعافي الفاشلة من الإدمان. سألتها: وليه الدموع؟ قالت: يعني عشرة قديمة برضو. تدور حلقات «فريندز» في خلفية الغرفة دائمًا، وكأنها عهدة، قلت: مسألة وقت، لكن العهدة انتقلت إلى ابنتي الصغيرة.

المررة الثانية يوم رحلت صديقة مشتركة نحبها، كنت أعرف غلاوتها، لكن أدهشتني دموعها وهي تقف على باب الغرفة صباحًا تقول: حنان كمال. لم

تقل توفت أو تعيش أنت أو شد حيلك، قالت بيقين مؤثر: حنان كمال انتقلت.

المرّة الثالثة يوم وفاة والدها، وقفت في منتصف غرفته بالمستشفى تضرب كفاً بكف، وتقول بحرقة: يا خسارة.. يا خسارة.

٢

سلمني الطيب ورقة بها قائمة المسموحات والممنوعات، قال: عليك أن تدقق في كل ما تضعه في فمك، التزم بالراحة التامة لأسبوعين، عشر دقائق مشي داخل البيت هي سقف المجهود المسموح، وعليك أن تتحرر من الضغوط التي قادتك إلى هذه الغرفة. قلت له: حياتي بسيطة لا ضغوط حقيقية فيها، أن أمر بسلام هو مشروعني الذي أبذل فيه كل ما أقدر عليه من تضحيات وأتحمل نتائج الاختيارات التي تقودني إلى حيث لا شيء سوى ضوء النهار والموسيقى والشاي ومسؤوليات يمكن السيطرة عليها بسهولة. قال: خُلق الإنسان في كبد، هناك ضغوط، أنت هنا ربما لأنك أنكرتها!

باب سحري فتحته ملاحظة الطيب، أقف خلفه أتأمل الضغوط التي أنكرها.

أراجع اختياراتي كثيرًا، أعترف بالخطأ، وأقبله، الاختيارات التي قادني فيها العقل، أخطاؤها سخيصة وثقيلة الدم، تكشف عن شخص كان يعتقد أنه محنك، أخل من نفسي ثم أسامحها، الاختيارات التي قادني فيها القلب أخطاؤها طيبة، تأملها يخلف ابتسامه تشبه تلك التي تستقبلك بها الأم على باب الشقة قائلة: ادخل يا أهبل. لكنني لم أتوقف عند ضغط شعور ثقيل بالخوف يعيش في القلب، الخوف من أن أقع في الخطأ نفسه مجددًا، أعرف جيدًا أنه لا ضمانه لعدم تكراره، أعرف نفسي، وأجيد إنكار ضغط ثقني في أن العوده مسألة وقت.

أهرب من ضغط الشعور بأنني لا أملك دليلًا على أي شيء، الأيام كائنات متجددة، ما انقرض ترك حفريات في سحب معلقة لا يمكن الإمساك بها كدليل، تهويمات تطل من فص في المخ، لا أحد يعرف طريقة عمله بدقة، المزعج في هذا الشعور هو العبث، لقد مررت بـ«الولا حاجة»، مقلب غير مفهوم لا أعرف طريقة لابتلاعه سوى الإنكار.

أتفادى الوقوع في فخ مقارنة نفسي بالآخرين، هو فخ لأنني لخطأ تقني ما أتجاهل كل البنود التي قد تحسم الأمر لصالحه، وأتوقف عند البند الذي أخسر فيه المقارنة، يلتصق بوجهي وكفّي، أنجح كثيرًا في المراوغة والهروب حتى لحظة ما، تفرض المقارنة فيها نفسها، تضيق المساحات وتتركني محاصرًا في ركن ضيق أواجه الموقف، في مصعد، في خبر صحفي، في فرح أحد الأقارب، في موقف سيارات في البنك، أبتلع الهدف الذي أحرزته المقارنة في شباكي وأتحرك بعيدًا، وبمرور الوقت يضجرني احتقان ما في حلقي.

أنكرت الضغط المختبئ في النعم الكبيرة، العمل والانتشار والزواج والأبوة والعائلة، الضغط الخفي في كونك أصبحت شخصًا حياته مستقرة وذا جذور، الجذور طموح وهي سجن أيضًا، أسوأ ما فيها أنها تحول بينك وبين الطيران، التمدد خارج حدودك، هناك سقف لحركتك في تجربة حياة تؤمن أن لا سقف لها، لم تعد طيرًا، أصبحت نباتًا، وأملك الأخير في الحرية والتمدد بعيدًا أن تعيش كاللبلاب.

أنكرت ضغط واحد من أجمل المشاهد التي أمر بها في طريقي كل يوم، مشهد أشخاص لا أعرفهم يضحكون في شرفات ضيقة، هناك تجربة حياة لا أعرف عنها شيئًا، أشخاص اختبروا كل شيء بطريقة مختلفة، يقتلني فضول معرفة كيف استقرت الأشياء في وجدانهم، تربكني رغبتني في أن أتسلل إلى بيوتهم، بلكوناتهم، غرفة المعيشة، أشاركهم الشاي والرغبي وتأمل ما علقوه على جدرانهم، فتظهر لوعة كوني غريبًا، أنا مش من هنا، ربما في سوهاج كانت الأمور ستصبح أسهل، كل الناس معارف وكل البيوت مفتوحة وسبق أن استمتعت بها، يؤلمني تجدد اكتشاف الغربة، أبتلعه وأكمل طريقي عندما ترتفع وتيرة كلاكسات السيارات التي أبطأت السير خلفي.

تظهر الأغاني بدون مقدمات، تطل طوال الوقت من راديو المطبخ، سيارة عابرة، شباك في طابق أرضي، كشك سجائر سهران في منتصف الليل فوق رصيف محطة قطار، تقدم لك كاستهلال نسيماً يلمس القلب، لكنه سرعان ما يتبخر تاركًا السؤال المرهق: أين ذهب شركاء كل هذه الأغاني الحلوة؟ الراحلون الذين غادروا الملاعب قبل أن تسدد دينك، تعبر عن مشاعرك، تبوح بالسر المرهق، تفتح مواضيع بعينها، تعتذر، تمنحهم

التقدير اللائق، أين ذهبت البيوت القديمة التي كانت جدرانها تحنو عليك،
تراقب شرودك مع الغناء، أين أوقات لسعة البرد، لمبات النيون، كسوة
الكنب البلدي المزدهمة بزهور عريضة، رائحة دولاب الخزين؟
تظهر لي الأغنيات التي أحبها كوسائد ناعمة مفخخة، أترك نفسي للنغمات
وأنكر آثار التفجيرات.

٣

سألته عاليا عن محتوى الورقة التي دسها الطبيب في كفي وهو يقدم
تعليماته، قلت لها: شخص ما طلب مني أن أكتب قائمة بأسماء كل
الأطعمة التي أحبها، كتبتها وسلمتها له، فكتب في أعلى الصفحة بخط
عريض «قائمة الممنوعات»، قصة قصيرة بأئسة تلخص الموضوع.

لم يعد متاحًا تفصيل لحم العكاوي الطري والتهامه مخلوطًا ببصل
الطاجن المحروق، الكوارع في حكم التحريم، كلمات من نوعية قويدر
والعبد ولاوار يجب تفادي نطقها ما حييت، اللحوم الملبسة تعجل
بالرحيل، لا بديل عن اللحوم الحمراء المشوية جيدًا سوى كفريات أجهزة
الموبايل الجلد، فهي الطعم نفسه بدهون أقل، الخلطة الوحيدة التي
يمكن إضافتها للرز هي خلطة السلطة الخضراء، والشيء الوحيد الذي
أستطيع أن أحشوه هو عيناى، عليّ أن أحشوها بـ«ذرة ملح» وأحترم
نفسى لأن الممبار قاتل، وصواني محشي الخضراوات تحتاج إلى لياقة
عالية، لا مزيد من الحواوشي، البط قاتل يمكنني فقط مراقبته وهو يقوم
من النوم فرحان بيعوم، والحمام رمز السلام، وهو أكثر ما أحتاج إليه في
السنوات القادمة، السلام طبعًا مش حمامته.

السي فود الوحيد المسموح لي بتناوله هو الأسماك ذات الزعانف فقط،
وعليّ أن أترك بقية المخلوقات البحرية تعيش في سلام، يكفي ما التهمته
من أرغفة الفينو الساخنة حاف، وجب الآن الخضوع للخبز المقدد ونص
رغيف فقط، الخضراوات لا بد أن أتناولها سوتيه، وستكون مفيدة أكثر
كلما كان طعمها أقرب إلى طعم بيجامات عمر أفندي، والكبد الوحيدة
التي يمكنني الاقتراب منها هي كبد الحقيقة، وهي أنك مريض، البيض
يمكنني التهام بياضه فقط، أما الصفار فهو لا يؤذي سوى صاحبه.

عليّ أن ألتمز بالجبن القريش، والفول المدمس، والفاصوليا المجففة،

والزبادي قليل الدسم، والشاي السادة، وألا تغيب عن ذاكرتي أبدًا فكرة أن الإنسان في رحلة، والرحلة مجرد محطة، يكفيك بعض المقرمشات والسناكس لتسليك في السكة.

ارتبكت زوجتي وأنا أعدد الممنوعات، تعرف حجم الورطة، بعد عدة أعوام من الزواج شعرت بالإرهاق، فقالتها لي صريحة: إنت كان لازم تتجوز واحدة بتموت في الأكل، أنا مش قادرة أجاريك، نفسي اتقطع.

تعرف أن الباب قد أغلق في وجه من يؤمن بالطعام كطريقة للتعامل مع تجربة الحياة، الكفة التي يستخدمها ليزن مجريات الأمور، شخص تتحرك أحزانه بعيدًا في اللحظة التي يبدأ فيها نزول السلطات في أي مطعم، يكافئ ويحتفل ويعتذر ويتودد مستعنيًا بناصر البرنس وأبو العينين ومحمد الرفاعي وسعد الحرامي، يواسي نفسه بالباذنجان المخلل الغارق في زيت الزيتون، والفول الغارق في الزيت الحار والطحينة، ومشكل الكبد والكلاوي الغارق في الفلفل المشطشط، وكفتة الصعيد الغارقة في يخني البصل، يبلع التوتر بالرز بلبن بالقشطة والمكسرات، يدلل بناته في مستعمرات البرجر والفراخ المقلية والبيتزا إكسترا صوص رانش، تزوره قفلة الكاتب فيفتحها بفطيرة سحج كيري، يحارب الملل بفتح علب البلوبيف والتونة، يرقق أحزانه برقائق البسطرمة، يذيب شعوره بالوحدة وهو يذيب لحم الرنجة فوق عين البوتاجاز، هذا الشخص الذي يفتش عن طعم تجربة الحياة في اللقمتين، بات عليه أن يبحث عن طريقة أخرى.

٤

استعدت تلفوني المحمول مع اقتراب موعد المغادرة، توالى الاتصالات، قال لي صديق: لا يقلقك الإقلاع عن التدخين، ستمر أعراض الانسحاب سريعًا. سألته عن حياته بعد نجاحه في التخلي عن الدخان. قال: والله من يوم ما بطلت وصحتي في النازل. قال لي صديق آخر: أنا أيضًا أتحرك بدعامة، لم أقلع عن التدخين، وأعوض التقصير بالالتزام بطعام لا معنى له والمشى حول البيت كل يوم. اتصلت أستاذتي سناء البيسي سألتني عن الوضع، قلت لها بنبرة مهزومة: ركبوا لي دعامة. قالت لي: يا حبيبي أنا مركبة ١٤.

اتصلت بأمي فيديو، فكرت أن مصارحتها وجهًا لوجه ستخفف الصدمة قليلًا، قلت لها: لا تقلقي مافيش زايدة ولا حاجة، دي جلطة ودعامة في

السريع الحمد لله. زاغت عيناها قليلاً وشحب لون وجهها وارتعشت شفتاها وهي تؤمن على كلامي: الحمد لله، الحمد لله. أعادت الاتصال بعد ساعة، قالت إنها تحركت من سوهاج، في الطريق، وتسالني عن عنوان المستشفى، قلت لها: تعالي على البيت. قالت: اتصل بأبوك، أنا ما عرفتش أقول له. هاتفته. تلقى الخبر بهدوء. قال: خد بالك من نفسك، إحنا مسؤولين منك، مافيش حاجة تستاهل.

فتحت جوجل أفتش عن أي معلومات تخص الطبيب الذي وضع يده في سرايين قلبي، وجدت رابط فيديو برنامج يستضيفه، وكان أول ما قاله: يجب أن نعرف أن جلطة الشريان التاجي سبب أكثر من سبعين في المائة من حالات الوفاة حول العالم. ألقيت الموبايل بعيداً، وقررت ألا أخوض التجربة مرة أخرى، لكن يبدو أن الإنترنت قد قرأ اهتماماتي سريعاً، فبث روابط فيديوهات عناوينها عبارة عن سؤال نصفه الثاني المتكرر يقول: «بعد تركيب الدعامة». فيديوهات لمتخصصين تشرح كيف تسير الحياة بعد هذه العملية، الحج بعد تركيب الدعامة، السفر بالطائرة، العلاقة الزوجية، تبييض الأسنان بالليزر، القفز بالزانة.

لم أشغل أيّاً من هذه الفيديوهات، سرت طمأنينة منبعها أرقام المشاهدات العالية التي تقول إنني لست وحيداً، لكن سرعان ما أصابني وجوم السؤال: هل أصبحت حياتي الطبيعية تتوقف الفترة القادمة على السؤال والاستشارة؟ هل أصبحت مواطناً درجة ثانية محروماً من بعض تفاصيل الحياة؟ هجمت عليّ أحزان أفقدتني الرغبة والقدرة على الكلام، لكنني سرعان ما استعدتهما بعد استلام فاتورة المستشفى.

باقتضاب، بينما يوقع تصريح الخروج، وبنسبة مشاعر لا تتجاوز الصفر قال الطبيب: خد بالك من نفسك، إنت خمسين، خلاص ما بقيتش صغير.

أنا هنا منذ خمسين عامًا؟

لم أعد شابًا صغيرًا، كل ما يحيط بي يبذل مجهودًا ليؤكد المعلومة، بطاقة الرقم القومي، حقيبة الأدوية، صورتي في المرآة، طفلتان اتفقتا على كوني «بابا»، الاستعانة طوال الوقت بأسعار قديمة للتدليل على أن الأيام «اتقلت بركتها»، أصبحت قراءة الشيخ الحصري الجادة تناسب مزاجي أكثر من بقية الكبار، لم يعد حبي لجمال عبد الناصر مطلقًا، ويتراجع كل فترة غضب تقييم تجربة السادات، وإن ظل مبارك مستقرًا في ملعب له ما له وعليه ما عليه. أترحم وأقرأ الفاتحة أكثر من مرة في اليوم الواحد مع كل خاطرة تهل تحمل وجه صاحبها الراحل وهم كثير، أتابع مباريات فريقى المفضل بدون صوت، أنتظر بشغف تجمع شلة الأصدقاء متى سمحت الظروف بالألا يغيب أحدها، أتمهل بين الطوابق إذا ما استخدمت السلم، أتفادى التعامل مع مكيفات الهواء قدر استطاعتي، تراجعت مكانة القهوة، فنجان صباحي فقط، أما الشاي فهو مشروب اليوم بطوله، صرت الشخص الذي يتم على مفاتيح النور وترباس باب الشقة كل ليلة قبل النوم، كنت أكره النقد، صرت أتقبله ولا علاقة لهذا بالنضج لكنها عدمية ما، أهلاً برأيك لكن ليس لديّ ما أقدمه لك، ده اللي حصل وده اللي عندي. بعد سنوات من الإنكار والتضليل واستخدام كل أنواع المحسنات، أصبحت أصارح أُمي بأي مصيبة ارتكبتها، كنت أرى في العلاقات كنزًا إنسانيًا، لكنني أتفادى حاليًا العلاقات المؤذية، والمفيدة أيضًا، قررت أنني سأكمل الطريق بمن استقروا في معيتي قبل زمن، بما يترتب على ذلك من التزامات ولا داعي للمزيد منها، كمالياتي وألعابي كلها «على القاعدة»، أصبحت مؤمنًا بأهمية أن الواحد لا بد أن يدي القعدة حقها، وجهات نظر الآخرين أصبحت بالنسبة لي نوافذ أتلصص منها على حياة أصحابها، لم أعد مهتمًا بتقييم موقفه من قضية ما، لكنني أستغل الفرصة لتقييم تجربة حياته وكيف وصلت به إلى هذه النقطة، أصبحت أؤمن الطاقة التي تستهلكها العداوة، وهي تكفي لتشغيل موتور مياه في عمارة كبيرة، أدخرها لتشغيلها في التصفيق للمهرة ورد الجميل لأصحاب الفضل

وبروزة الحلوين، ظلمت الفشل لسنوات طويلة، وأومن اليوم بأن جاذبية الفشل تفوق جاذبية النجاح قيمة، وأرى خبرة الفشل أعمق وأكثر إنسانية حقيقية، وتمتلى بالعلوم والأسرار والمشاعر، كنت أحكم العقل ما استطعت، وضبطت نفسي مؤخرًا أتعامل بالعاطفة كثيرًا، لكنني أعرف حدودي وأجيد مهارة التوقف قبل أن أبدو في نظر نفسي رجلًا تافهًا حساسًا.

على الرغم من كل ما سبق من علامات أشعر بأن المراهق القديم لم يختف، هو الذي يدير المشهد، ما زال جسدي ينفعل في مواقف بعينها، بالارتباك نفسه الذي كان يركب معدة المراهق الذي ظل يرن تلفون منزله كل يوم في صيف ٨٨، قبل نشرة أخبار التاسعة مساء لتنتقل أغنية تقول صاحبته: «غريبة إنك تنساني وتنسى شوقي وحناني».

عليّ أن أتعلم من كل ما سبق ما يساعد على بداية حياة جديدة، تليق بالرقم الذي بت أحمله، لكن بداية يجب أن أتعلم شيئًا من صدمة غرفة الرعاية المركزة، كنت قريبًا من الرحيل لكنني عدت، يقول العقل إنني لا بد أن أحترم هذه الفرصة، ويقول القلب كانت مغامرة جميلة استمر، لا يفسر أو يزيد.

سأستمر ولا أعرف أي تعديلات يمكن أن أدخلها على خطتي سوى تفادي القلق والدهون.

فيما عدا ذلك لا أعرف بدقة الخطة المناسبة، لكنني سأحاول أن أستفيد من المهارة الوحيدة التي اكتسبتها بممارسة الكتابة، الارتجال.

مدين لأبي وأمي بمنحهما هذه الفرصة لشخصي، وممتن لكل ما بذلاه لكي يكون المشوار سهلًا قدر الإمكان.

لا أعرف طريقة لتقييم ما أنجزته، وبالتالي لا أعرف إن كانت هناك خسائر أم هي مجرد وجهات نظر ابنة وقتها، أدخل الخمسين وأنا أومن بعدم صحة مقولة انتهى عصر المعجزات، لا أرى غيرها، أومن بما قاله عبد الفتاح مصطفى: «كل الوجود معجزة»، لا أومن بأن الفرصة ما بتجيش غير مرة واحدة، هناك فرصة كل يوم، ولا توجد مرة واحدة لشيء سوى تجربة الحياة نفسها، بداخلها يوجد عدد لانهائي من كل شيء، اللي أعرفه لا يوجد ما يميزه عن اللي ما أعرفهوش، الفرق الوحيد بينهما هو أنا

شخصيًا، إذا تجاوزتني سيكون الجميع مميّزًا، نفس الواحد تعوقه كثيرًا عن التقدم، وهي جبانة بطبعها.

استهلكت في الخمسين التي انقضت حوالي أربعين في المائة من قلبي، سأبدأ المرحلة الجديدة بنصف قلب تقريبًا، يقول الأطباء هو النورمال، وأنا لا يشغلني الأمر، احتياجاتي بسيطة، يكفيها ما تركته لي الجلطة سليمًا.

لا يشغلني عارض زيادة الوزن بعد الخمسين، أنا في حرب مستمرة منذ التسعينيات مع الكرش، وهي جولات لم تتوقف يومًا، وانتصاراتها دومًا مسألة وقت، لكنني لا أملك حيلة مع انتفاخ الوجه وازدياد مقاسه بتقدم العمر، الوش اللي بيتخن هو ما أفتش عن طريقة للسيطرة عليه.

سأتمرن على تجديد الرؤية، وفي ذلك تجديد لإيمان الواحد بمعنى تجربته، الإنسان مسير فيما يجري عليه، لكنه مخير في طريقة النظر إليه.

فشلت كل مشاوير الجيم في حياتي لأسباب لا علاقة لها بالكسل أو اليأس، لكن لاستقرار قناعة ما بأنني أريد جسدًا في حدود التزاماتي، حركة شخص يأكل عيشًا، وليس من هواة أكل الناس على أقفيتهم، وشكله مقبول على الأقل لينجو من تقريع المقرين، الزيادة غرور وأرق ومسؤولية لا لزوم حقيقيًا لها، بعد الخمسين أعرف أنني بحاجة إلى تمارين تخدم ثلاث أفكار، النفس والمفاصل وعضلة القلب، سيكون المشي وتمارين الإطالة والتنفس التزامًا له معنى.

الشيخوخة ابنة الفراغ، لا يصاب بها شخص مشغول بشيء ما، قد تظهر عليه آثار استهلاك مركبة الجسد، لكنها تتحول إلى أعراض مهلكة إذا توقفت المركبة تمامًا، الركنة مهلكة سواء كنت إنسانًا أو ماكينة لحام.

لن أتورط في إعادة تقييم ما مررت به، سأستمتع بكوني مررت.

سألح في طلب المزيد من دعوات الأم، أو من بهذه المعجزة إيماني بوجود الله. تقول الأم: ربنا يرزقك بأولاد الحلال. فيظهرون لك، وهو أمر قد يحتاج - بدون دعوات الأم - لسنوات وتجارب شاقة لاكتشافه.

يعايرني بعض الأصدقاء بكوني كسولًا، الكسل بالنسبة لي صاحب فضل ومن أفضل رفاق السكة، مدين له بمهارة البحث عن الحلول الأسهل، صارت البساطة ميزتي في سوق الكتابة، علمني ألا أعقد الدنيا وأن أدقق كثيرًا قبل قبول أي عمل، فنجوت بنسبة معقولة من الفشل، علمني أن

أدقق كثيرًا قبل أن أخرج من داري وبنسبة جيدة ما اتقلش مقدارى، علمني أن أكون واضحًا ومباشرًا وسهلاً وأدخل في الموضوع مباشرة، وأن أجتهد لأكون مستمعًا لبقًا، الكلام سهل، علمني أن أراقب فلاحظت، وأن أدقق فظهرت الأفكار الجديدة، وأن أصبر فتعلمت، علمني الصبر النمكية التي قادتنى للتأني، فصرت قريبًا بنسبة ما من صيغة الشخص غير الملهوف على الدنيا، وهي تفصيلا كنت لسنوات أحسد القادرين عليها.

تتهمني أمي بأنني مهمل فيما يتعلق بالأناقة، وكانت ابنتي تستعد لاحتفال مدرسي، على كل طالب أن يرتدي فيه زي مهنة معينة، كانت ابنتي تفتش عن فكرة، فقالت لها الصغرى: البسي زي بابا لبس كاتب. سألتها: الكاتب بيلبس إيه؟ فقالت: أي تيشيرت سودا وبنطلون جينز. لخصت مقصوفة الرقبة علاقتي بالملابس في مشهد. أفتش طوال الوقت في المحلات عن الجديد في مجال التيشيرت السودا والبنطلون المريح. صارت الأناقة من وجهة نظري ملابس نظيفة، مكوية، رائحتها طيبة، وأظهر فيها كشخص عادي، لا يدفعك مظهره باتجاه أي شعور سوى الإنصات لما قد يقوله. لا تناسبني البدل الكاملة ولا أرتاح في القمصان، ولم أسمع تعليقًا يحرضني على التغيير سوى من أمي، عندما أسافر إليها أعبئ حقيبتى بأشكال وألوان، وأصطنع أي مناسبة لجعل عينيها تقعان على محتوى الحقيبة، ثم أعود للتيشيرت السوداء والجينز، أفكر بعد الخمسين أن أضع بعض التعديلات، قد تكون الجلايب مناسبة للحدث.

أخطط للتخلص من المبالغة، تظهر كثيرًا في حياتي، نمكية البحث عن أفضل نتيجة في العمل، قد تكون النتيجة مُرضية، لكن المقابل مبالغ فيه، السلام النفسي وعلاقتك بالآخرين، تظهر أيضًا في ترتيب كل خطوة إلى الأمام، لا خطوة بدون خطة محكمة، تستغرقني الخطط أحيانًا، أصبحت أومن بمقولة أن الأحلام الكبيرة ترقد بسلام في مقبرة التخطيط.

المبالغة في الحصول على التقدير المناسب لما قدمته، اكتشفت أن التقدير يظهر عندما لا تتوقعه، ويكون وقتها هدية للذكرى، المبالغة في قراءة أثر ما يجري حولك، الانشغال في التحليل والتوقعات يعطل الواحد عن اكتشاف الحلول، المبلغ الذي أدخره من أجل الإنفاق على بناتي يفقد قيمته، وهو في مكانه دون أن نستمتع به، سادخره في بناتي، سأجتهد في أن يكبرن وقد فتحت لهن بما أملكه آفاقًا تفيد الشخصية والخيال، أرق

الفساد الذي يحكم توزيع الفرص، لا علاج له سوى إعادة تعريف الفرص لخلق أنواع جديدة.

أخطط لأن أجري لمسافات طويلة كل يوم حتى تنصهر الشحوم التي تغطي حقيقتي، وأن أتعلم تدمير الفول، والعزف على البيانو، والمونتاج، وهجر الموبايل، والعمل في مكتب بلا شاشة تلفزيون، فقط راديو وعدة شاي، وأن أتعلم التغافل وأحافظ على مستواي في الصبر، وأن أسافر إلى المدن التي أحفظ أسماءها منذ الصغر وأعرف أنها مهمة، لكن لا صورة ذهنية لها في خيالي، أقول الأقصر فترى المعابد، ما الصورة التي تمر أمام عينيك عندما تسمع كفر الزيات، كوم حمادة، سفاجا، نجع حمادي، جرجا، كفر الدوار، المنزلة، نخل؟

أومن بأنني هنا ضيف، والمصير كما تقول الأغنية الطيبة أن «نصبح ذكريات مجرد ذكريات»، سأحاول أن ألتزم بروح الضيف الذي يسعده واجب الضيافة، ولا ينشغل بتقييمه، ويخطط لأن يمشي تاركًا خلفه انطباعًا أنه كان خفيًا على أصحاب البيت، خفة تشبه «غنوة حلوة من ضمن الأغنيات».

سأتفق مع خطّاط ليكتب بعرض حائط غرفة المكتب جملة الأب «ما فيش حاجة تستاهل»، وسأعلن للمقربين أنني اعتمدتها خطة للطريق، وسأعلن موافقتي على الحياة بالطريقة التي حكمتها الظروف، ستكون النجاة في المشي، وقد تساعدني خفة الطعام في تحقيق حلم الطفولة، الطيران، وهو ليس استسلامًا، ولكنه طموح قديم أن يكون الرضا مرجعية تجربتي، وثقتي في كوني لا أدخل الخمسين بطولي، أدخلها أقوى في رفقة قلب اختبر سقف الصدمة ومسند بدعامة.

لن أعتزل الكتابة، أتمنى ألا تقدّم هي على اعتزالي، أدعو الله أن يديمها نعمة، وإن كنت بيني وبين نفسي لم أفقد الأمل في «أخوية الطبقة المتوسطة».

عمر طاهر من مواليد صعيد مصر في منتصف السبعينيات. صدر له العديد من الكتب الناجحة، من بينها: «صناعية مصر: مشاهد من حياة بعض بناة مصر في العصر الحديث» (جزءان)، و«كُحل وخبَّهان - رواية»، و«أثر النبي: قصص قصيرة من وحي السيرة»، و«إذاعة الأغاني: سيرة شخصية للغناء»، و«مَن علَّمَ عبد الناصر شُرب السجائر؟»، و«شكلها باظت: ألبوم اجتماعي ساخر».

كما أصدر عدة دواوين شعرية من بينها: «وضع محرّج»، و«قهوة وشيكولاتة»، و«مشوار لحد الحيطه». وكتب أغنيات لكثيرين من بينهم: حمزة نمره، وكايروكي، وسعاد ماسي، ومحمد عساف، ورامي صبري، وأصالة، وأحمد عدوية، وأحمد سعد، ومدحت صالح.

كتب للسينما عدة أفلام من بينها: «طير إنت»، و«يوم مالوش لازمة»، و«كابتن مصر». وقَدَّم عدة برامج إذاعية من بينها: «واحد صاحبي»، و«الطريق إلى عابدين»، و«شفيت ربنا» مع عزيز الشافعي. وقَدَّم عدة برامج تلفزيونية منها: «وصفوا لي الصبر: عن الكتابة وأهلها»، و«صناعية مصر»، و«مصري أصلي»، و«سر الكينج (حلقات حوارية مع محمد منير)»، و«اتجنن مع كوكاكولا». وكتب عدة مسرحيات من بينها: «يا طالع القلعة»، و«شغل عفاريت». وكتب للتلفزيون مسلسل الكارتون «سوبر هنيدي».

حصل على عدة جوائز، من بينها جائزة أفضل كاتب مقال عام ٢٠١٥ في استفتاء مجلة الشباب، وحصل كتابه «إذاعة الأغاني» على جائزة أفضل كتاب ٢٠١٥ في استفتاء المكتبات والقراء، واختيرت روايته «كُحل وخبَّهان» في القائمة القصيرة لجائزة نجيب محفوظ للأدب ٢٠٢١. كتب لمعظم الصحف والمجلات المصرية.